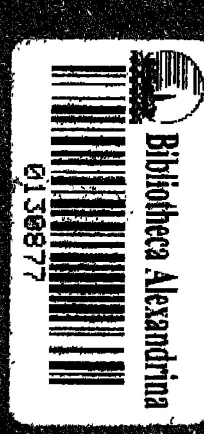
دكتور محمود إسماعيل

الأدارسة

(١٧٢ - ٣٧٥ هـ)

حقائق جديدة



مكتبة مدبولي
القاهرة





الأدارسة

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الناشـــر

مكتبة مدبولي

ميـدان طلعت حـرب بالقاهـرة -ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

دكتور محمود إسماعيل

الأدارسة

(١٧٢ - ٣٧٥هـ)

حقائق جديدة

مكتبة مدبولي
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

لمنّة الإله
ومبتغى سناه ؟
من أطعمتني من خمائل نخلها رطباً وتمْر
ومن زلالها عبْت نهر خمْر
وعشت ضمن أهلها من السنين عشر
ومن حجالها اصطفْيت مؤنسه .

* * *

لساحة البطحاء ، مقهى « فانْت كاتْر » .
لكل طائر مغرِّد بوكرْ
وزنقة « ابن عائشة » .
لجوقة يسوسها « عبد الكريم » ،
نارنجة فوَّاحة بعطر
وكل ذرَّة من الأديم
في دمنها المندرسة .

* * *

لعابد وساجد بصومعة
وناسكات كرابعة ،
مدرس ودارس وحارس بجامعة ،

لكل كهلة وطفل ،
طفلة وكهل
من بنز « مازيخ » والرانسه :
بفاس .
مهجري ومطهري ومنبري :
تلك التي أهدتني يوماً من رباها نرجسه
أهدي ثراها زهور أس
من شذى « الأدارسة » . !!

* * *

فهرس الموضوعات



مقدّمة

بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب منذ عشرة أعوام ، حين انتدبت من كلية الآداب بفاس لإلقاء محاضرات على طلبة الدراسات العليا بكلية آداب الرباط عن دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى .

وحين شرعت في إعداد مادة المحاضرات ؛ أيقنت أن المصادر المتاحة لا تفي بما يسعف من تقديم صورة واضحة عن الموضوع . كما أن الكتابات الحديثة العربية والاستشراقية لم تؤرخ قط لدولة الأدارسة في مؤلفات مستقلة بذاتها . اللهم إلا رسالة قدمت عن الموضوع في الستينات بكلية دار العلوم بالقاهرة لنيل درجة الماجستير . وكنت قد اطلعت عليها آنذاك وأدركت أنها لا تعدو صياغة لغوية حديثة لنصوص قديمة جد محدودة .

أما كتابات المستشرقين الفرنسيين ـ الذين اهتموا بتاريخ المغرب ـ شأنها في دلك شأن الدراسات العربية الحديثة : فقد عرضت للموضوع في عجالة ضمن التأريخ لبلاد المغرب عموماً . وإذا كانت الكتابات العربية تنهج نهجاً منقبياً تمجيدياً تعبيراً عن التعاطف مع آل البيت ؛ فإن المستشرقين الفرنسيين ـ كجوتييه وتيراس وفورنل وجوليان وجورج مارسيه وغيرهم ـ عولوا على التقليل من شأن الأدارسة من خلال إضفاء المذهبية والإثنية والإقليمية كرؤى تفسر النصوص المحدودة في المصادر الأصلية .

وقد نبهت إلى هذه المزالق في دراسة تحمل عنوان « ملاحظات حول

تـاريخ الأدارسـة »[1] أثارت في حينهـا من الحوار مـا رسخ فكـرة الإقدام على دراسة الموضوع رغم محاذيره .

ومن حسن الحظ أن نصـوصاً جـديدة صـدرت تباعـاً لتكشـف الكثير من الغمـوض وتضع نهـاية « المؤامـرة الصمت » التي حيكت قديمـاً وحديثـاً حول تـاريخ الأدارسـة . تلك المؤامرة التي فضحهـا باحث مغـربي[2] جاد بـالنسبـة للمؤرخين القدامى ؛ حين فسرهـا في إطار المصـادرات المعـرفية بين مؤرخي السنة ومؤرخي الشيعة في العالم الإسلامي الوسيط .

ومن جـانبنا نـرى أن مدرسـة الاستشراق الفـرنسي عزفت ـ إراديـاً ـ عن التأريخ « لدولة » أصلت لمفهوم « المخزن » منذ وقت مبكر انـطلاقاً من نـظرة استعمّارية ترى في بلاد المغرب « سيبة » تبـرر الاستعمار الاستيـطاني تأسيسـاً على نظرية « حق الغزو » و« المشاع المستباح » التي ظل معترفاً بها في القانون الدولي حتى عام ١٩٤٠ م .

على أن اقتحام الموضوع لم يخل من مصاعب . إذ كيف يمكن التأريخ لدولة انعدم أوكاد « إطارها المصدري »؟ هذا السؤال سبق أن طرحه البـاحث المغربي الذي أثبت أن كتب الأدارسة الأصلية أهملت قديماً حتى ضاعت إن لم يكن قد أتلفت عمداً . ونؤكد ـ من جانبنا ـ أن كل المصادر التي عرضت لبعض جوانب الموضوع فضلاً عن اضـطرابها واختـلافها حتى فيمـا يتعلق بالأحـداث والوقائع الأساسية ، قد دبجت في عصر متأخر .

وهـذا يفسر لمـاذا أهمل المؤرخـون المشارقـة القـدامى ـ وعلى رأسهم الطبرى ـ التأريخ للأدارسة رغم تصنيفهم حوليات عالمية . فالقليل النادر الذي أورده بصدد الأدارسة مضبب بنزعة التحامل المذهبي حتى وصل الحال إلى حد التكفير والتشكيك في أنسابهم . أما المغاربة القدامى فقد أسهموا في مزيد من

---

(١) نشرت الدراسة في المجلة التونسية « الحياة الثقافية » عدد ٥ ، أكتوبر ١٩٧٩ .

(٢) راجع : عبد اللطيف السعـداني : إدريس الأول منشيء دولة وبـاعث دعوة . فصل من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، عدد ٤ ، ٥ ، سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ .

التضبيب عن طريق نسج هالات من البطولات والخوارق والكرامات على آل إدريس. ولم يقدم المتحاملون والمشايعون معاً أكثر من سير ذاتية ذات مسوح أخلاقي . ناهيك عن أساليب الاختلاق والتزييف والتحريف والانتحال والافتعال . وحسبنا أن تاريخ ابن أبي زرع ـ وهو أوفى المصادر المتأخرة بعامة ومنه نقل كل من جاء بعده ـ يورد أحداثاً ووقائع يزعم بالباطل أنه نقلها عن أسلافه[1] .

إن « فساد » وندرة المادة التاريخية الأصلية عن بني إدريس تبرر حكم أحد الدارسين الثقاة في تاريخ المغرب وحضارته بأن « الكثير من تاريخ الأدارسة يتسم بالغموض . كما أن الكثير من الأدب المتوافر الذي وصلنا أدب تمجيد النزعة »[2] .

أما والحال هكذا فلم يكن بد من الانتظار المترقب لظهور مادة جديدة تبرر اقتحام الموضوع لتقديم مؤلف طموح بصدده . ولعل هذا يفسر لماذا طالت فترة الانتظار قرابة أعوام عشرة تمثل الزمن الفاصل بين بداية الفكرة ونهاية الإنجاز .

من حسن الطالع أن مادة تاريخية جديدة توالى صدورها خلال تلك الحقبة . منها مخطوط لمؤرخ مجهول يحمل عنوان « مفاخر البربر »[3] يتضمن مادة قيمة ـ رغم ضآلتها ـ تفيد في إجلاء بعض الغموض وتحيط اللثام عن حقائق جديدة .

ومنها نصوص نشرت بمجلة الوثائق المغربية بالغة الأهمية في الكشف عن الدعوة الزيدية وعلاقتها بدعوة المعتزلة وتضافرهما معاً للتمهيد لقيام الدولة الإدريسية عام ١٧٢ هـ. فخطبة إدريس الأول التي ألقاها على القبائل التي بايعته تنم عن التأثير الهام للمعتزلة في الدعوة الإدريسية فكرياً وسياسياً .

---

(١) زعم ابن أبي زرع أنه نقل روايات عن البكري وصاحب كتاب الاستبصار . وبالعودة إلى هذين المصدرين لم نجد ما من شأنه أن يثبت ذلك .

(٢) هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى ، تونس ١٩٨٠ ، ص ٣٨.

(٣) توجد نسخة منه بالمكتبة العامة بالرباط .

ورسالته إلى أعوانه بمصر التي يأمرهم فيها بالإعداد والاستعداد لإقامة الدولة الزيدية بمصر ، تضع نهاية للفكرة الشائعة الخاطئة بين المؤرخين عن قيام دولة الأدارسة صدفة ودونما إعداد دعائي وسياسي سابق .

ومنها تحقيق مخطوط للصاحب إسماعيل بن عباد يحمل عنوان: « نصرة مذاهب الزيدية »[1] كشف الكثير من الخبايا عن الدعوات الزيدية في العالم الإسلامي كتطبيق عملي للفكر السياسي الزيدي . واستناداً إلى هذه الحقائق الجديدة أمكن التأريخ بثقة لقيام دولة الأدارسة . كما أمكن معالجة موضوع سياستها الداخلية ـ فضلاً عن الخارجية ـ استناداً إلى نصوص جديدة أيضاً لمؤرخ الأندلس الأشهر ابن حيان ، فضلاً عن قطعة من كتابه «المقتبس» تتعلق بعصر الإمارة في الأندلس، وأخرى بعهد الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر، فاجأنا المستشرق الإسباني « شالميتا » بقطعة جديدة نشرها وتتعلق بعصر الخليفة الناصر[2] . وتذخر بمعلومات جديدة وثرية عن عصر الأدارسة الأواخر الذي كان شبه مجهول . وقد أفاد الباحث منها في التأريخ المستوفي ـ لأول مرة فيما نزعم ـ لأوضاع المغرب الأقصى في عهود الأدارسة الأواخر فضلاً عن علاقاتهم بالفاطميين وأمويي الأندلس وهو أمر سبقنا إليه بعض الدارسين من تلامذتنا النجباء ، كما سنوضح في موصفه .

وإلى جانب هذه الحارة الجديدة اعتمدنا على مصدر هام وثائقي آخر لم يوظف سلفاً بالقدر الذي يتناسب وأهميته . أعني مجموعات النقود الإدريسية التي صنفها الأستاذ Eustache والأستاذ Colin[4] . وهي فضلاً عن أهميتها في

---

(١) حقّقه الدكتور ناجي حسن وصدر ببغداد سنة ١٩٧٧ .

(٢) نشرت بمدريد سنة ١٩٧٩ .

(٣) راجع : Corpus des dirhames Idrisite et contemporains, Rabat, 1970.

(٤) راجع : Monnaies des la periode Idrisite trouveés à Volubilis, Hesperis, XXII, 1966 .

دراسة التاريخ الإدريسي اقتصادياً واجتماعياً : لا تخلو من أهمية جلّى بالنسبة للتاريخ الإدريسي السياسي والإداري والمذهبي .

وإلى جانب هذه المادة الجديدة عولنا على مظان أخرى معروفة لم يفد منها الدارسون ربما لأنها ليست مصادر تاريخية . أعني كتب الجغرافيا والرحالة التي تضمنت معلومات هامة افتقرت إليها التصانيف التاريخية . وليس أدل على هذه الأهمية من أن جغرافيا كالمقدسي أورد إشارة جد خطيرة عن الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية كانت من وراء فتح آفاق جديدة لدراسة قيام دولة الأدارسة . ومع ذلك مر عليها الدارسون مرور الكرام . لقد كان أول من نبه إلى دور المعتزلة في الدعوة الزيدية إلى حد الدمج بين الدعوتين معاً : وهو ما اعتمدناه وأثبتنا صحته في ضوء النصوص الأخرى الجديدة التي اعتمدنا عليها .

ويكتسب كتاب «المغرب» للبكري منزلة خاصة بالنسبة لكافة مباحث الدراسة . ونحن نعده « كنزاً » كان منغلقاً أمام المؤرخين ربما لتشكيك ابن خلدون في صدقه ونزاهته وربما لضيق رؤية هؤلاء المؤرخين الذين لم يحفلوا إلا بالتاريخ السياسي والعسكري .

وحسبنا تقديراً لجغرافية البكري أنها أوفى المصادر قاطبة بالمعلومات المتعلقة بتاريخ المغرب الوسيط ، تلك التي كتبها الرواد الأوائل كالوراق والرقيق وعبثت بها أيادي الدهر فلم تصل إلينا .

هذا فضلاً عن تنوع هذه المادة وتغطيتها للجوانب السياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية . وحسبنا أن الوراق قام بتصنيف مؤلفه الجامع هذا بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر إبان مرحلة عول فيها أمويو الأندلس على التدخل المباشر في المغرب الأقصى . لذلك يكتسي مؤلف البكري أهمية أخرى تعود إلى معاصرته للكثير من الأحداث الجمة التي تتعلق بدولة الأدارسة .

ولنفس الغرض أيضاً كلف ابن حوقل بكتابة جغرافيته من لدن الفاطميين . وحسبُ أنه زار المغرب الأقصى وعاين حياة سكان عن كثب .

وسجل ودوَّن مشاهداته الثرية في الجغرافيا البشرية والسياسية . ولكونه إسماعيلي المذهب ؛ فقد اهتم بالجوانب الاعتقادية وقدم خريطة ثرية عن المذاهب والطوائف ببلاد المغرب الأقصى آنذاك . وقد حظي الأدارسة باهتمامه ؛ إذ كان يتجسس عليهم خدمة « للمشروع » الفاطمي في المغرب الأقصى . ولأن هذا المشروع تبلور حول الأطماع الاقتصادية ـ بامتياز ـ فإن كتاب ابن حوقل يغص بمادة غزيرة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي .

وترقى جغرافية اليعقوبي إلى مكان الصدارة ـ دون مدافع ـ فيما يتعلق بالجغرافيا السياسية . إذ انفرد بمعلومات إضافية عن مناطق الحدود والثغور والطرق والممرات الاستراتيجية التي أضاءت الكثير من الغوامض عن أسباب التشاحنات والصراعات بين الأدارسة وجيرانهم .

وبالطبع لم نغفل المصادر التقليدية المشرقية والمغربية والأندلسية ، التي تهتم بالتاريخ السياسى ، كذا أفدنا من كتب الطبقات والملل والنمل والأدب وما شابه . لكننا لن نسترسل في تبيان مدى أهميتها نظراً لتناولنا إياها من دراسات سابقة بما يغني عن اللجاج والتكرار .

ومن الإنصاف أن أعترف بإفادة الباحث من عدد من الدراسات الحديثة في تاريخ المغرب والأندلس خاصة ما يمس منها موضوع البحث من قريب أو بعيد . ويشرفني أن أنوه بأصحاب هذه الدراسات من تلامذتي النجباء الذين أشرفت على أطروحاتهم سواء في المغرب أو في مصر . لعل من أظهرهم الأساتذة سنوسي يوسف ومحمد حباني ومحمد صدقي وعبد الكريم بيصعين وبهيجة سيمو .

كذا أشير وأشيد إلى بعض الأصدقاء من المؤرخين المغاربة الذين نحوا في دراساتهم عن تاريخ المغرب نحواً علمياً صارماً . من أشهرهم الدكتور عبد الله العروي والدكتور الحبيب الجنحاني والدكتور محمد الطالبي . لقد كانت لقاءاتي مع هؤلاء الأساتذة والطلبة عياناً أو من خلال كتاباتهم ذات فائدة عكست أصداءها على هذا العمل ؛ برغم الاختلافات أحياناً في المناهج والرؤى .

ومن حق القارىء أن يعرف أن هذا العمل ليس تاريخاً شاملاً للأدارسة بقدر ما هو محاولة لإبراز الجديد في هذا التاريخ . ولما كان الهدف وطبيعة الموضوع يحددان المنهج والرؤية ، فلا أقل من التنويه بمنهجية هذه الدراسة ورؤية صاحبها .

ولسوف يقف القارىء على عديد من المناهج التي وظفت في معالجة الموضوع . وأقرر بدء أننا لم نجد غضاضة في اتباع المنهج الوصفي التجزئي والرؤية « الميكروسكوبية » خاصة فيما يتعلق بحل « إشكالية » ملء الفراغات اعتماداً على المادة الجديدة المتاحة التي وظفت في سد الفجوات المتعلقة بتاريخ الأدارسة وما أكثرها . وفي هذا الصدد عمدنا إلى التفصيل والإطالة وأكثرنا من ذكر الأحداث والوقائع .

أما المسائل المتفق عليها والتي انتهى إليها دارسون سابقون فلم نسترسل في عرضها إلاّ بالقدر الذي يخدم استمرارية العرض أو يستلزم إضافة قرائن جديدة لم تكن متاحة سلفاً .

كما اعتمدنا النهج المقارن خاصة في معالجة موضوعات السياسة الخارجية التي تستوجب الإحاطة بتاريخ الدول ذات العلاقات مع الأدارسة . وذلك في محاولة لتصحيح الكثير من الأحكام التي صدرت عن مؤرخين تخصصوا في دراسة دولة بعينها من تلك التي كانت على علاقات مع الأدارسة ؛ دون أن تتاح لهم فرصة الإحاطة بالمعطيات العامة للعلاقات الدولية إبان الحقبة موضوع الدراسة .

من أجل ذلك كان على الباحث أن يفيد من عدد من المناهج الحديثة والمعاصرة فيما يتعلق بالتعامل مع « النص » أو إن شئت « قراءته » : خاصة وأن طفرة منهجية في مجال دراسة العلوم الإنسانية حدثت منذ منتصف هذا القرن . وأن حركة « تبشير » بجدوى هذه المناهج تجري في عالمنا العربي على الصعيد النظري دون أن تأخذ طريقها بعد إلى مجال التطبيق . أقصد على وجه

الخصوص دعوة المفكر الجزائري الأستاذ محمد[1] أركون الذي يرى ضرورة توظيف حشد من المناهج كالتاريخانية والسوسيولوجية والمادية والبنوية والسيمولوجية والأنتروبولوجية وغيرها .

ونحن إذ نشاركه الرأي ؛ نرى ضرورة التحفظ من حيث توظيف كل منهج أو أكثر في إطار المجال أو المجالات التي تفيد فيها . بمعنى أن مشروعية استخدام منهج ما رهينة بالجدوى التي يسفر عنها هذا التوظيف . وعلى سبيل المثال يمكن الإفادة من « البنيوية » في مجال تفكيك الظاهرة موضوع البحث للكشف عن مقوماتها ومكوناتها . لكن من الاعتساف أن نزج بمنهجها أو مناهجها في مجال التفسير والتنظير .

من هنا ؛ أفاد الباحث من منهجية « ميشيل فوكو » سواء في طرح موضوعات البحث باعتبارها « إشكاليات » تتطلب حلولاً . كذا من رؤيته من « أركيولوجية المعرفة » خاصة بالنسبة لدراسة « التراكمات » المذهبية والإديولوجية في المغرب الأقصى لمعرفة ما استجد وما ذوى وما استمر في بنية هذه المذاهب منذ نشأتها في المشرق حتى استقرارها في المغرب . ولم نذهب مذهب بنيوي آخر معاصر هو « جاستون باشلار » القائل بالقطيعة الإبيستمولوجية .

كما أفاد الباحث من منهج المؤرخ الفرنسي الشهير « بروديل » بوجه خاص « ومدرسة الحوليات » المعاصرة بوجه عام . سواء في الاهتمام بمفردات التاريخ الاقتصادية كشرط أساسي للوقوف على أنماط الإنتاج وعلاقاتها وبالتالي تفسير معطياتها عل كافة الأصعدة التاريخية الاجتماعية والسياسية والثقافية ، أو في مجال تحويل الوقائع والأحداث ـ بعد التحقق من صحتها ـ إلى أفكار واضحة ومحددة تشكل حصاد البحث التاريخي كما يجب أن يكون . وتختزل هذا الحصاد في النهاية إلى ما يسمى « بالثقافة » .

(١) راجع كتابه الهام : تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، بيروت ١٩٨٦ .

وأفاد الباحث أيضاً من المنهج « الانثروبولوجي » في دراسة البنى القبلية والاعتقادية والطقوسية لا للوقوف على أنماطها فحسب بل باعتبارها « ظاهرات » تعبر عن مدى صيرورة أو سكونية ـ إن جاز التعبير ـ أو تباطؤ أو إسراع حركة التطور التاريخي . ناهيك عن الوقوف على « تأثيرات » « وفعاليات » هذه الأنماط بشكل ملحوظ خاصة في مجتمعات لم تشهد ثورة بورجوازية . وقد أفاد اعتماد هذا المنهج البحث موضوع الدراسة ليس فقط في الوقوف على الخرائط الإثنية والمذهبية في المغرب الأقصى في ظل الأدارسة ، بل في رصد تأثيرات ظواهر العصبية والطائفية في تاريخ الأدارسة السياسية أيضاً .

وبالمثل أفاد الباحث من « السيميائية » في قراءة النصوص ودلالات الألفاظ الشائعة والاصطلاحات الثابته في الخطاب الإسلامي القرووسطوي . وأمكنه باستبارغور الكتابة الرسمية ـ كخطب ورسائل الأدارسة ـ والإبداع الشعري ـ خاصة ما أورده ابن الآبار عن الأدارسة الشعراء ـ أن يقف على الكثير من الحقائق التي لم تفصح عنها الحوليات التاريخية .

وفي مجال التفسير والتنظير ـ الذي لم يخل البحث من الكثير بصدرهما ـ يظل الباحث على قناعة بجدوى المنهج المادي الجدلي التاريخي دون سواه . ولم يقع في منزلق « ألتوسير » التوفيقي بين المادية التاريخية وبين البنيوية ، بقدر ما وظف كلاً من المنهجين في مجاله .

أخيراً ؛ بفضل المادة الجديدة المتاحة ومنهجية التناول التي أحسب أنها جديدة أيضاً ، لا يجد الباحث حرجاً في الإعلان عن وقوفه على حقائق جديدة في موضوع معضل . ومصداقية هذا القول رهينة بحكم جلة الدارسين المتخصصين .

والله أسأل التوفيق

الطويلة فى ١٩٨٨/٧/٥ — محمود إسماعيل

الباب الأول

قيام دولة الأدارسة



الفصل الأوّل

الشيعة الزيدية في الشرق الإسلامي

يرتبط قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ بالتشيع الزيدي ، فكراً ودعوة وثورة . وهذا يعني أن الخيوط الأساسية لقيام تلك الدولة العلوية نسجت في الشرق . وهو أمر يتسق مع طبيعة قيام الدولة المستقلة ببلاد المغرب نتيجة دعوات مذهبية ذات أصول شرقية خارجية وسنية وشيعية . وهذا ينفي مقولة خاطئة دأبت مدارس الاستشراق الغربي على ترديدها ؛ فحواها تميز الصيرورة التاريخية في المغرب بالخصوصية والاستقلال عن الماجريات العامة في المشرق . كما يضع نهاية لمن تأثر بها من المؤرخين المغاربة المحدثين القائلين « بالقطيعة الإبيستمولوجية » بين المشرق والمغرب .

إن قيام دولة الأدارسة مصداق لصدق القاعدة الخلدونية التي تشترط إلى جانب العصبية دعوة مذهبية تسبق قيام الدولة وتمهد لتأسيسها . والبحث عن الدعوة المذهبية الإدريسية يقودنا إلى ضرورة تتبع أصولها الشرقية في المذهب الشيعي الزيدي الممزوج بالاعتزال . ومن ثم تقتضي سلامة المنهج رصد أصول هذه الصيغة الإديولوجية خاصة ما يتعلق منها بالفكر السياسي .

وننوه بأن إشكاليات عويصة تعترض سبيل الدارس لهذا الموضوع . لعل من أهمها الاختلاف البين في الروايات التاريخية نتيجة الصراع الفكري والسياسي والعسكري بين السنة والشيعة . كذا الاختلاف بين مذاهب الشيعة بعضها البعض ؛ ناهيك عنه بين فرق الشيعة الزيدية نفسها ؛ وبالذات في مجال الفكر السياسي عموماً وحول قضية الإمامة على نحو خاص . وتزداد المشكلة

إلغازاً بالنسبة للمذهب الزيدي الذي اختلطت آراؤه بأراء الإعتزال .

ومن يمن الطالع أن نصوصاً جديدة ظهرت يمكن بفضلها التماس حلول لهذه الإشكاليات . واستناداً إليها يمكن خوض الموضوع بما يحقق غايتين . أولهما ؛ رصد الجديد الذي يمكن أن ينضاف إلى فكر وتاريخ الزيدية . وثانيهما ، تكريس الفكر والتاريخ الخاص بالزيدية في الكشف عن أصول دعوتهم التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة .

معلوم أن الزيدية فرقة من فرق الشيعة . وأن المذهب الشيعي نشأ من خلال جدل فكري عبر عن صراع « سوسيوسياسي » شجر في صدر الإسلام حول الخلافة . ومعلوم أيضاً أن اغتصاب بني أمية الحكم « مغالبة » أسهم في دعم الحزب الشيعي وتصدره ساحة المعارضة . تلك الساحة التي أبلى فيها الزيدية بلاءً حسناً ..

وينتسب الزيدية إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وهو الذي تصدى لمناهضة الأمويين بعد استشهاد الحسين وفشل الشيعة الكيسانية ولجوء العلويين عموماً إما إلى المهادنة الحذرة المترقبة أو العمل السياسي السري .

نشأ زيد بن علي في المدينة وتقلب ما بين الكوفة والبصرة[1] لكسب جماهير الشيعة إلى حركته التي تصدت للأمويين عسكرياً . وما نود إثباته أن الثورة العسكرية سبقتها دعوة سياسية استندت إلى أساس مذهبي . ويستلزم الكشف عن أسرار هذه الدعوة رصد الفكر السياسي الزيدي .

وأول ما يسترعي الانتباه في هذا الصدد أن الزيدية أفادوا من أخطاء التجارب العلوية السابقة وجنحوا نحو الاعتدال والوضوح خاصة بالنسبة لقضية الإمامة . فمعظم فرقهم لا تجعلها بالنص والتعيين بل عن طريق « عقد البيعة » . ولم تختص بها فرعاً من فروع البيت العلوي بقدر ما أطلقتها « شورى » في ولد

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل، حـ ١، ص ٢٠٨ ، القاهرة ١٩٦٥ .

الحسن والحسين[1] . يقول ابن خلدون[2] : « ساق الزيدية الإمامية على مذهبهم باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص » . حجتهم في ذلك أن « الإمامة لا تستحق على وجه الإرث ولا جزاء على الأعمال »[3] . بل تستند إلى « دعوة » الإمام «عالم زاهد غير خوار ولا جزوع »[4] يشهر سيفه في وجه الخصوم . « وإذا قعد بطلت إمامته »[5] .

وهذا يعني عدم مجاراة الفرق الشيعية الأخرى القائلة بمبدأ « التقية » ومبدأ « المهدية ». بل لا بد من ظهور الإمام الذي « يستلزم المسلمون أن يعرفوه ليمكنهم إجابته ونصرته »[6] .

كما اشترط الزيدية ضرورة أن يكون الإمام عادلاً يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ؛ « لأن القبح في أحوال العباد منهم وليس من الله » .

والإمام « أعزل من شرط العصمة »[7] . لذلك « أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل »[8] . كما جوزوا قيام إمامين في وقت واحد « إذا ما كانا في طرفين متباعدين »[9] .

هكذا اتسم الفكر السياسي الزيدي بالاعتدال من أجل كسب المزيد من الاتباع والأنصار وتوجيههم « للكفاح المسلح تحقيقاً للأغراض السياسية »[10].

---

(١) النونجتي : فرق الشيعة ، ص ٢٢١ ، بيروت ١٩٨٤ .
(٢) المقدمة ، ص ١٤٤ ، المكتبة التجارية .
(٣) الصاحب إسماعيل بن عباد : نصرة مذاهب الزيدية ، ص ١٨٣ ، بغداد ١٩٧٧ .
(٤) نفسه : ١٦١ .
(٥) نفسه : ١٤٣ .
(٦) نفسه : ٢٠١ .
(٧) انظر : ابن عرفه الورغمي : باب الإمامة ، من كتاب المختصر الشامل ، تحقيق : سعد غراب ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد ٩ سنة ١٩٧٢ ، ص ١٩٦ .
(٨) الشهرستاني : ١ : ١٦١ .
(٩) ابن عباد : ١٩٧ .
(١٠) نفسه : ١٣ .

كما ابتعد عن الغلو الذي طبع فكر الروافض[١] ؛ بحيث جارى بعض المذاهب الأخرى غير الشيعية كأهل السنة ومعتدلة الخوارج والمعتزلة . وحق لجولدتسيهر القول : « لم يكن الإمام عند الزيدية معصوماً منزهاً يحتكر التأويل الباطني بقدر ما اتسم بصورة واقعية ، يعمل في الحياة في نضال مكشوف كحاكم وفقيه للجماعة الإسلامية ». لذلك كان الزيدية الأوائل أقرب ما يكونون إلى أهل السنة باعتمادهم مبدأ الشورى ومبدأ جواز تقديم المفضول[٢] . لذلك فهم يمثلون الفرقة الشيعية الوحيدة المعتزلة إزاء أهل السنة[٣] .

كما اقتربوا من فكر الخوارج في القول بالثورة العلنية المشروعة على أئمة الجور .

وكان اقترابهم من المعتزلة أعمق وأوثق حتى اعتبر بعض علماء الفرق[٤] المعتزلة فرقة زيدية . ومعلوم أن واصل بن عطاء أفاد من علم الأئمة العلويين ودرس على بعضهم[٥] ، كما تتلمذ على يديه زيد بن علي مؤسس المذهب الزيدي[٦] . ولا غرو فقد تأثر الزيدية بالمعتزلة في نظرية الإمامة[٧] ، فضلاً عن الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعموماً يعتبر علم الكلام الزيدي محاكاة لآراء المعتزلة ، وإن كان بعض الدارسين[٨] يرون أن واصل ورثها عن الأئمة العلويين الذين توارثوها عن علي بن أبي طالب . ولعل هذا التداخل كان من أسباب اعتبار بعض رجالات الزيدية أنفسهم من المعتزلة .

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ، ص ٢٥٨ ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ٢٣٧ ، القاهرة ١٩٥٩ .

(٣) محمد حسين الزين : الشيعة في التاريخ ، ص ٧٤ ، بيروت ١٩٧٩ .

(٤) جولدتسيهر : ٢٣٧ .

(٥) الملطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص ٣٩ ، القاهرة ١٩٤٩ .

(٦) المرتضى : المنية والأمل ، ص ٥ ، حيدرأباد ١٣١٦ هـ. القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، ص ٢١٥ ، تونس ١٩٧٤ .

(٧) الشهرستاني : ١١٦ .

(٨) جولدتسيهر : ٢٢٢ .

(٩) نفسه : ٢٢٠ .

وبالمثل كان معتزلة بغداد يقولون « نحن زيدية »[1] .

لم يكن التأثر والتأثير المتبادل بين مذهب الزيدية والاعتزال قاصراً على الجانب الفكري ؛ بل انسحب على العمل الدعائي السياسي المشترك كما سنوضح في موضعه .

وهنا تثار إشكالية أخرى ، هل كانت الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي مستقلة ، أم أنها اندرجت في سلك الدعوة العباسية ؟ وما هو موقف المعتزلة من الدعوة الزيدية والعباسية ، مع العلم بثبوت وجود دعوة معتزلة مستقلة ؟

سيأتي الإجابة ضمناً على هذه الأسئلة من خلال استعراض الدعوة الزيدية وما آل إليه مصيرها بعد أن تحولت إلى ثورة سياسية اجتماعية .

سبق الجزم بأن « الدعوة شرط من شروط الإمامة عند الزيدية »[2] . فكسب الاتباع وتجنيد الانصار وتعبئة الجيوش ومباشرة الحرب كان مسبوقاً بإعداد وتنظيم ودعاية . ومعلوم أن زيد بن علي انتصب للحرب ضد الأمويين سنة ١٢٤ هـ. هذا يعني أن تنظيم الدعوة كان سابقاً لهذا التاريخ . ونحن نعلم أن العلويين غير الزيدية ـ من الكيسانية والحسينيين ـ اندرجوا في الدعوة العلوية التي آلت زعامتها لبني العباس سنة ١٠٠ هـ. ونقرر من ثم أن الزيدية لم ينخرطوا في هذه الدعوة على أساس عدم اعترافهم بالكيسانية أصلاً . كما تثبت الوقائع وقوع خلاف بين الزيدية والحسينيين أيضاً . لذلك نؤكد عدم انضمام الزيدية إلى الدعوة العلوية العباسية ، خصوصاً بعد تعلق جموع الشيعة في الكوفة والبصرة بشخص زيد بن علي وتحريضهم إياه على الثورة ضد بني أمية من ناحية وبعد أن تنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي بن

---

(١) الصاحب إسماعيل بن عباد : ٢٢٠ .
(٢) نفسه : ٢٢٣ .

عبد الله بن العباس في زعامة الدعوة[١] من ناحية أخرى .

لذلك طفق زيد بن علي يدعو لنفسه في البصرة والكوفة والموصل[٢] مستقلاً عن الدعوة العباسية متخذاً الحذر والحيطة من تآمرهم بصورة لا تقل عن حذره من الأمويين . يفسر ذلك تغييره مكان إقامته دوماً حتى لا ترصده عيون الخصمين معاً . كذا اختياره دعاته من خاصته آل بيته الذين كانوا يتخفون في ملابس العلماء والتجار ويؤلبون الناس ضد بني أمية على أساس « أن الثورة عليهم غضب للّه ودينه »[٣]. كما عولوا في دعوتهم على إبراز الجانب الاجتماعي حيث دعوا الأتباع والأنصار « إلى كتاب الله وسنة نبيه **وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم الفيء بين أهله بالسواء ورد المظالم** ونصرة أهل النبي »[٤] .

لذلك أقبلت جماهير الوالي الساخطين على بني أمية على الدعوة . كما اندرج في سلكها عرب الحجاز الذين حرمهم هشام بن عبد الملك من الأعطيات[٥] . كما حظيت بتأييد الفقهاء كالإمامين مالك وأبي حنيفة وبعض رجالات العلويين الحسينيين ـ كمحمد النفس الزكية ـ فضلاً عن شيوخ المعتزلة كواصل بن عطاء[٦] . وأخذت البيعة لزيد من أهل الحجاز والبصرة والكوفة والموصل وخراسان والري وجرجان[٧] . لكن أخطأ حين عجل بإعلان الثورة قبل نضج الدعوة فكان ذلك من أسباب فشلها كما سنوضح في موضعه .

بعد فشل ثورة زيد بن علي سنة ١٢٤ هـ وثورة ابن يحيى سنة ١٢٥ هـ

---

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ، ص ١٢٦ ، النجف ١٣٥٣ هـ.
(٢) فلهوزن : ٢٥٧ .
(٣) البلازري : أنساب الأشراف ، جـ٣، ص ٢٠٢ ، القاهرة ١٩٥٩ .
(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، جـ ٧، ص ٧٣، القاهرة ١٩٦٣ .
(٥) الأصفهاني : ١٤٥ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ ٣، ص ٤١٦ ، القاهرة ١٩٤٠ .
(٧) الأصفهاني : ١٣٧ .

اندرجت الدعوة الزيدية في سلك الدعوة العباسية .ويُعزى فضل ذلك إلى محمد النفس الذكية الذي تزعم الفرع الحسني . وقد تحقق الاندماج في مؤتمر سري عقد عام ١٢٧ هـ تقرر فيه أن تؤول الخلافة إلى محمد النفس الذكية بعد نجاح الثورة العباسية[١] . ولعل هذا يفسر اعتراف العباسيين الذين تزعموا الدعوة عملياً بحق العلويين أصحاب الفضل الأول في تأسيس الدعوة حين طرحوا شعار « الدعوة للرضى من آل محمد ». لكن العباسيين استأثروا بالخلافة بعد نجاح الثورة على الأمويين سنة ١٣٢ هـ.

وعلى الأثر انفصلت الدعوة الزيدية عن العباسية وتزعمها محمد النفس الزكية بتعضيد من المعتزلة .

وهنا نتوقف لتبيان موقف المعتزلة . ونؤكد في هذا الصدد أنهم لم يدمجوا دعوتهم في الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي . صحيح أنهم تعاطفوا معه ، لكنهم آثروا الاستقلال بأمر دعوتهم .

قرينتنا على ذلك أن واصل بن عطاء الذي ألف كتاباً عن أصول « الدعوة » الإعتزالية اتخذ من الكوفة ـ وليس البصرة مقر دعوة زيد بن علي ـ مقراً لدعوته . ومنها أنفذ دعاته إلى بلاد المغرب وخراسان واليمن والجزيرة وأرمينية[٢] . وقد أورد الجاحظ[٣] اسماء بعض هؤلاء الدعاة كعبد الله بن الحارث وحفص بن سالم والحسن بن زكوان وعثمان الطويل وغيرهم . وإذا علمنا أن دعاة واصل في خراسان ـ مثل حفص بن سالم ـ كانوا يعملون مستقلين عن دعاة زيد في نفس الإقليم ـ مثل عبيد بن كثير الجرمي والحسن بن سعد الفقيه[٤] ـ أدركنا حقيقة الانفصال بين الدعوتين الزيدية والاعتزالية رغم تعاطف واصل مع زيد بن علي وحركته .

---

(١) نفسه : ٢٠٥.

(٢) الدمشقي : تاريخ الجهمية والمعتزلة ص ٨١.

(٣) البيان والتبيين ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ ، القاهرة ١٩٤٨ .

(٤) الأصفهاني : ١٤٧.

ونعتقد كذلك أن واصل لم يدمج دعوته بالدعوة الزيدية التي ترأسها محمد النفس الذكية إلا بعد انفصال الأخير عن الدعوة العباسية التي وقف منها المعتزلة موقف المعارضين .

على كل حال ـ أدى انضمام المعتزلة إلى الزيدية بزعامة محمد النفس الذكية إلى إدماج دعوتيهما في دعوة واحدة . وهو أمر يتسق مع فكر المعتزلة السياسي الذي يحبذ العمل تحت راية إمام عادل أولاً ، ثم التأكد من مواتاة ظروف النجاح ثانياً. ويبدو أن تقاعسهم عن مناصرة زيد بن علي ـ رغم عدله ـ كان نتيجة عدم اختياره الوقت المناسب لإعلان ثورته . فضلاً عن اكتشاف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك أمر الدعوة الزيدية[1] .

ويبدو أيضاً أنهم أدمجوا دعوتهم في الدعوة الزيدية بزعامة محمد النفس الذكية[2] بعد وقوفهم على اشتداد ساعد دعوته والتفاف الكثيرين من الأتباع والأنصار حولها بعد أن غدر به بنو عمومته من العباسيين . وليس أدل على ذلك من قيام محاولات ـ قبل اندلاع الثورة العباسية وبعدها ـ لتحويل الأمر إلى العلويين . كما أن تنكر العباسيين للكثير من شعارات الدعوة ـ كالإخاء والإصلاح ـ بعد احتكارهم الخلافة صرف أنظار الكثيرين من شيعتهم إلى البيت العلوي .

وهذا يعني أن دعوة محمد النفس الزكية نجحت في استقطاب الكثيرين ممن اندرجوا سلفاً في سلك الدعوة العباسية ، فضلاً عن الشيعة الزيدية الذين

(١) نفسه : ١٣٥ .

(٢) ذكر الأصفهاني أن واصل وعمرو بن عبيد اجتمعا في دار عثمان بن عبد الرحمن المخزومي من أهل البصرة وتذاكروا . فقال عمرو : من يقوم بهذا الأمر ممن يستوجبه حصوله ؟ فقال واصل: «يقوم به والله من أصبح خير هذه الأمة محمد بن عبد الله بن الحسن » .
انظر : مقاتل الطالبيين، ص ٣٩٣ .

جندوا في دعوة زيد بن علي . وليس أدل على ذلك مما ذكره الطبري(١) من أن زيدية خراسان كانوا يكاتبون محمد النفس الزكية ويرسلون إليه صدقاتهم وأموالهم . وهذا يفسر لماذا اتسع نطاق الدعوة لتشمل مصر والحجاز والشام وخراسان والعراق واليمن وبلاد الهند وبلاد المغرب(٢) . وهذا يعني أنها لاقت رواجاً في أقاليم لم ترحب بدعوة زيد من قبل كبلاد الشام ومصر التي عاقب الخليفة المنصور أهلها لإقبالهم على علي أخ النفس الزكية بأن حرمهم من أداء فريضة الحج(٣) .

وقد أفادت دعوة محمد النفس الزكية من أساليب وخطط الدعوة العباسية في التخفي والاستتار ، حتى أن الدعاة كانوا يتنكرون في ملابس العربان . كما استخدمه النساء في مهام الاتصال(٤) فضلاً عن نظام محكم للبريد لنقل الأخبار بين رئيس الدعوة ودعاته في سائر الأمصار(٥) .

كما أفادت من أخطاء زيد بن علي ؛ فطورت المذهب الزيدي بما يوافق أغراضها العلمية . وفي هذا الصدد أجيزت « التقية » والتبشير «بالمهدوية »(٦) . بل لم يتورع محمد النفس الزكية عن استرضاء الأتباع والأنصار عن طريق بذل الأموال(٧) .

لكل ذلك تعاظم أمر الدعوة ولم يجد المعتزلة ما يحول دون انضمامهم إليها دعائياً وسياسياً وعسكرياً . كما واصلوا تعضيدها بعد أن آلت رياستها إلى

(١) تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩، ص ١٨١ ، عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول ، ص ٨٢، القاهرة ١٩٧٣ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٠٧، ٣٠٨، القاهرة ١٩٦٤ .
(٣) الطبري : ٩ : ١٩٢ .
(٤) نفسه : ٧ : ٥٤١.
(٥) الأصفهاني : ٣٧٧.
(٦) قال محمد النفس الزكية في إحدى خطبه « إنكم لا تشكون أني أنا المهدي وأنا هو ».
انظر: الأصفهاني: ٢٠٥ .
(٧) نفسه : ٣٢٤.

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن علي . وما فتئوا على موقفهم هذا حتى قيام دولة الأدارسة ؛ وهو ما سنفصله في موضعه .

أما وقد انتهينا من إثبات وجود دعوة زيدية وضع أصولها زيد بن علي وبلغت أوجها على يد محمد النفس الزكية . فمن المفيد أن نعرض، بإيجاز لثورات الزيدية في الشرق التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة . ولن تحفل إلا بتبيان طابعها الاجتماعي وتحصيل عوامل فشلها وما أدى إليها هذا الفشل من تحول « مشروعها » السياسي إلى الأطراف حيث نجحت - شأنها شأن الخوارج - في تأسيس كيانات سياسية مستقلة .

انطلقت الثورة الزيدية الأولى عام ١٢٤ هـ بزعامة زيد بن علي . وبرغم كثرة انصارها من العرب والموالي[٢] . وبرغم تأييد الفقهاء ؛ آل مصيرها إلى الفشل . وقد فسره المؤرخون[٣] بخذلان أهل العراق زيد كما خذلوا جده الحسين من قبل . لكن أحداً لم يشر إلى سر موقف أهل العراق هذا . إن تحليلاً دقيقاً يجب أن يضع في الاعتبار تأثير الفكر السياسي الزيدي إيجاباً وسلباً على مجريات الحركة . لقد تبنت أهدافاً اجتماعية واضحة « كرد الفيء إلى من حرموا منه وتوزيع الخراج بالعدل ». ولذلك أقدم المستضعفون من العرب والموالي على تعضيدها . لكن في نفس الوقت لم يتقاعس أثرياؤهم عن مناهضتها .

كما أن قول الزيدية - دون فرق الشيعة الأخرى - بجواز إمامة المفضول كان يعني اعترافاً ضمنياً بخلافتي أبي بكر وعمر . لذلك آزرها الفقهاء من أهل السنة . وفي نفس الوقت أحدث هذا الاعتراف صدعاً في صفوف أنصارها من الشيعة ، فكف الكثيرون منهم عن مناصرتها بل قعدوا عن المشاركة فيها[١] .

وعلينا أن نضع في الاعتبار كذلك دور العباسيين في هذا الفشل على

---

(١) الطبري : ٨ : ٢١٧، فلهوزن : ١٧٩.
(٢) الأصفهاني : ١٤١.
(٣) فلهوزن : ٢٥٨ .

الرغم من زعم بعض الدارسين بأنهم تعاطفوا مع زيد بن علي نكاية في بني أمية . وما نراه أن العباسيين لم يدخروا وسعاً في وضع العراقيل أمام[1] زيد حتى يفتك به جيش هشام بن عبد الملك ، لأن نجاحه كان يعني سحب البساط من تحت أقدامهم والحؤول دون تطلعهم إلى الخلافة .

لذلك تنفس العباسيون الصعداء بعد فشل الثورة . ولنفس السبب ابتهجوا لفشل ثورة ابنه يحيى سنة ١٢٥ هـ[2] . وحسبنا أن هذا الفشل جرى لصالحهم إذ كسبت دعوتهم الكثيرين من أنصار الدعوة الزيدية خصوصاً في خراسان[3] .

على كل حال ـ نجحت الثورة العباسية في إسقاط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ. وأدى استئثارهم بالخلافة ـ دون العلويين ـ إلى تفجير الخلاف بين الطرفين . وما يعنينا أن الحرب الكلامية حول الأحقية بالخلافة أفضت إلى انشقاق محمد النفس الزكية عن العباسيين . وقد تبعه الكثيرون من شيعة بني العباس حتى في خراسان نفسها[4] ؛ الأمر الذي شجعه على إعلان الثورة . لذلك أصبح الصراع العسكري بين الخصمين أمراً لا مندوحة عنه .

---

(١) ذكر مؤرخ مجهول أن بكير بن ما هان ـ من دعاة العباسيين ـ خاطب أهل الكوفة بقوله : « إلزموا بيوتكم وتجنبوا أصحاب زيد ومخالطتهم فوالله ليقتلن وليطلبن بمجمع أصحابكم » . وبالفعل عندما قامت الثورة في الكوفة خرج بأصحابه إلى الحيرة حتى هزم زيد وقتل ؛ فعاد بهم إلى الكوفة .

انظر : نبذة من كتاب التاريخ ، ص ٤٤ .

(٢) الصاحب إسماعيل بن عباد : ٢٢١ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٤٤٨ ، القاهرة ؟

(٤) ذكر اليعقوبي : « لما مات زيد تحول الشيعة بخراسان وكثر من يأتيهم ويميل معهم وجعلوا يذكرون الناس بأفعال بني أمية ومن نالوا من آل الرسول . . وظهرت الدعاة وتدورست الملاحم » .

انظر : تاريخه ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، النجف ١٣٥٨ هـ .

وذكر المسعودي أن أهل خراسان لم يولد لهم ولد في عام ١٢٥ هـ إلا وسموه زيداً أو يحيى .

انظر : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ، القاهرة ١٩٦٥ .

طور العباسيون الحرب الكلامية[1] إلى إعداد سياسي وإداري بهدف إحكام الخناق على محمد النفس الزكية ؛ فأسندوا ولاية الحجاز لولاة جفاة أباحوا المدينة للجند ؛ فلبوا ونهبوا وهتكوا الأعراض[2] . كما أن الخليفة المنصور لم يتورع عن قتل شيوخ العلويين أمام ناظريه[3] ، إمعاناً في إرهاب الثوار . هذا في الوقت الذي أغرى فيه من أغرى ببذل الأموال والمناصب[4] . كما لجأ إلى الدهاة والحيلة فأمر بتزييف رسائل من أتباع النفس الزكية تستحثه الخروج للقتال قبل أن تكتمل استعداداته[5] .

وبالفعل وقع محمد النفس الزكية في الشرك فأعلن الثورة في المدينة دون أن يعلم أخوه إبراهيم بالعراق سنة ١٤٥ هـ[6] . عندئذ باغته المنصور بجيشين الواحد في إثر الآخر بعد أن أمدهما بالمؤن والعتاد والسلاح[7] . وتمكن

(١) لسنا في حاجة إلى سرد التفصيلات في هذا الصدد ، ذلك لأن الموضوع قتل بحثاً . ونكتفي بإيراد بعض النصوص الهامة التي تخدم موضوع الدراسة . ذكر الطبري عن استئثار العباسيين بالخلافة « أن السفاح خطب في شيعته يقول: إن الأمر فينا ، ليس منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ».
انظر : تاريخ الرسل والملوك : ٧ : ٤٢٨ .
وقد برر المنصور هذا الاستئثار بقوله : « إن أولاد ابن أبي طالب تركناهم والخلافة لم تعرض لهم بقليل ولا كثير . . قام بها علي بن أبي طالب فما أفلح ، ثم قام بعده الحسن فوالله ما كان برجل . . ثم قام الحسين فخذله أهل العراق . . ثم قام زيد فخذله أهل الكوفة . . ثم وثب علينا بنو أمية فأهانوا شرفنا واذهبوا عزنا . . فأحيا الله شرفنا وأصار إلينا ميراثنا » .
انظر المسعودي : ٣ : ٣١١.
وعن المساجلات الكلامية بين الطرفين، راجع : ابن الأثير: الكامل، جـ ٥، ص ٥٣٧ وما بعدها .
(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، جـ ١، ص ١٥٢، القاهرة ؟
(٣) ابن الأثير: ٥ : ٥٢٦.
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) الأصفهاني : ٢٦٠ .
(٦) نفسه : ٣١٩.
(٧) المسعودي : ٣ : ٣٠٧ .

القائدان حميد بن قحطبة وعيسى بن موسى من إحكام الحصار حول المدينة للحؤول دون وصول نجدات من العراق . ثم باغتا المحاصرين فأجهزوا على الثوار . وقتل محمد النفس الزكية رغم استشساده في القتال .

وكان إبراهيم أخ النفس الزكية قد تمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز ؛ لكن جيش العباسيين ما لبث أن أجهز عليه ومن معه عند مكان يقال له « باخمرا » قرب الكوفة .

إن فشل ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم يرجع إلى الوقوع في أخطاء استراتيجية ؛ ذلك أن اندلاع الثورة في الحجاز والعراق عجل بالقضاء عليها . فالحجاز بموارده المادية والبشرية المحدودة أعجز من أن يقوم بثورة ضد دولة في مرحلة فتوتها . كما أن اندلاعها في العراق ـ قلب الدولة العباسية ـ عجل بنهايتها التراجيدية . فإذا أضيف إلى ذلك تفجر الشقاق بين العلويين ؛ حسنيين وحسينيين أدركنا سر نجاح العباسيين في القضاء على الثورة الزيدية[1] .

آلت زعامة الزيدية إلى عيسى بن زيد وعلي بن العباس بن الحسن بن الحسن بن علي . أما عيسى لاذ بالكوفة معلناً العزوف عن السياسة إلى الاشتغال بالعلم[2] . واكتفى الخليفة المهدي منه بالمسالمة[3] . فلما أزمع العصيان لم يجد بداً من القبض عليه وسجنه إلى أن وافاه أجله[4] .

أما علي بن العباس فقد أخطأ حين اتخذ من بغداد معقلاً لنشاطه السياسي السري . فلما اكتشف أمره دس المهدي إليه من دس له السم[5] .

(١) الأصفهاني : ٢٧١ .
(٢) نفسه : ٤٠٧ .
(٣) قيل أن يعقوب بن داوود وزير المهدي هو الذي أعزى الخليفة بمسالمته لأنه كان يضمر المذهب الزيدي .
انظر عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٨٤ .
(٤) الأصفهاني: ٤٠٧ .
(٥) نفسه: ٤٠٣ .

آلت زعامة حركات الزيدية بعد ذلك إلى الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي الذي أخطأ أيضاً حين ثار بالحجاز سنة ١٦٩ هـ إبان خلافة موسى الهادي . فبرغم كثرة أتباعه لإلحاحه في دعوة علي « نصرة المستضعفين وتحرير الأرقاء »[١] . لم يجد الخليفة عناء في القضاء على حركته في معركة فخ ـ قرب مكة ـ حيث دارت مذبحة شبهها المؤرخون بكربلاء ؛ لم ينج منها إلا يحيى بن عبد الله بن الحسن وأخاه إدريس .

وغنيّ عن القول أن المعتزلة اشتركوا في الثورات الزيدية ابتداء بثورة محمد النفس الزكية وانتهاء بمعركة فخ حسب اعتراف زعيمهم عمرو بن عبيد[٢] .

لذلك تعرضوا لبطش بني العباس حتى عهد المأمون . فقد أمر الرشيد بطردهم من بغداد بعد أن « منع الجدل في الدين وحبس أهل الكلام »[٣] . لكن ذلك لم يحل دون مناصرتهم الزيدية الذين عمدوا إلى التقية في قلب الدولة[٤] من أجل مواصلة الدعوة في الأطراف . وقد توجت دعوتهم بتأسيس دولتين إحداهما ببلاد الديلم والأخرى ببلاد المغرب الأقصى[٥] .

أما الأولى فقد أسسها يحيى بن عبد الله ولم تعمر طويلاً ؛ إذ قضى الرشيد عليها بالخديعة والسياسة . أما الثانية فهي دولة الأدارسة التي أسسها

---

(١) الطبري : ٨ : ٩٤.

(٢) محمور إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ، ص ٨٠، فاس ١٩٧٧ .

(٣) المرتضى : المرجع السابق ، ص ٣١.

(٤) مع ذلك قامت حركتان زيديتان في الشرق ، تزعم الأولى شخص يدعى أبو السرايا في عهد المأمون ، ولم يكن من العلويين وإن أعلن الثورة باسمهم . والثانية بزعامة محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي ، الذي أعلنها في الطالقان سنة ٢١٨ هـ تحت شعار « الرضى من آل محمد ». وفي فشل الحركتين معاً وقيام الأولى باسم العلويين والثانية تحت شعار فضفاض، ما يؤكد خفوت صوت الزيدية في الشرق.

(٥) حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ١٢١، القاهرة ١٩٦٦ .

إدريس بن عبد الله بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ؛ وهو موضوع الدراسة . وقد مهدت ظروف بلاد المغرب الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية لتأسيس واستمرار الدولة الإدريسية . كيف تم ذلك ؟ هذا موضوع الفصل التالي .

الفصل الثاني

المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة

إن استقصاء أحوال الغرب الأقصى بتدقيق دور الأدارسة سنة ١٧٢ هـ سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً ضرورة منهجية تكشف عن العوامل الممهدة لنجاح الدعوة الزيدية . واستقصاء هذه الأحوال لا يتم بمعزل عن معرفة الإطار الجغرافي الذي شهد ووجه مسار الأحداث .

وتبرز أهمية الجغرافيا الطبيعية والبشرية من توجيه تاريخ العصور الوسطى حيث لم يتسنى للإنسان بعد التحكم في طبيعة المكان . هذا ما تقرره النظرية المادية من المعرفة بالنسبة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية . وهذا هو ما فطن إليه ابن خلدون حين أفرد في مقدمته الرائعة فصولاً هامة عن تأثير المكان من مزاجية الإنسان .

ذلك أن المعطيات الجغرافية هي التي تفرز التوجهات الاقتصادية للسكان . كما أن التوجهات الاقتصادية هي التي تحدد وتصوغ البنى الإجتماعية التي من خلال صراعاتها يتخلق التاريخ .

ولسوف نلاحظ أن جغرافية بلاد المغرب عموماً والغرب الأقصى خصوصاً مهدت للدعوة الزيدية التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة . بل لعبت دوراً محورياً في صياغة سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية .

والواقع أن اصطلاح «المغرب الأقصى» يشكل إشكالية تندرج ضمن إشكالية أكبر وأعم تتعلق بمصطلح «المغرب» الكبير . إذ اختلف الدارسون في

تحديد خريطته وتسمية أقاليمه . ويرجع ذلك إلى اختلافات أساسية بين المؤرخين والجغرافيين القدامى . إذ نظر هؤلاء إلى خريطة «بلاد المغارب» حسب المعطيات السياسية والإدارية إبان عصورهم . فاتساع رقعتها أو تقلصه ارتهن باختلاف عصور التاريخ الإسلامي عموماً ووضعية بلاد المغارب داخل خريطة «دار الإسلام» وطبيعة علاقاتها مع عواصم الخلافة في الشرق .

كما أن التقسيمات الكلاسيكية إبان الوجود الروماني والبيزنطي ، كذا التقسيمات السياسية الحديثة والمعاصرة أسهمت بدور في تخليق هذه الإشكالية ؛ نتيجة تأثير الإسقاطات القديمة والحديثة على «مغرب» العصور الوسطى .

ناهيك عن اختلاف رؤية المشارقة للمغرب ورؤية المغاربة للمشرق وما لعبه التنافر بين الرؤيتين في تعقيد الإشكالية . وهو أمر فطن إليه ابن خلدون[١] حين قال : « إعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه إسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة لإضافته إلى جهة المشرق . ولفظ الشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب . وكل مكان في الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة الشرق ومشرق بالإضافة إلى جهة الغرب »

لم تثر هذه الإشكالية بالنسبة للمغاربة في العصور الإسلامية الباكرة ؛ لأنهم لم يعتمدوا أي تصنيف أو تقسيم جغرافي لبلادهم . إذ كانوا يسمون الأقاليم بأسماء القبائل الضاربة فيها[٢] . وفي ذلك قرينة على أن الإشكالية لم تثر في الأدبيات التراثية إلا في حقب متأخرة[٣] .

وإذا عولنا على قاعدة رؤية خريطة المغرب في إطار خريطة «دار الإسلام» ؛ لا نستطيع أن نلج باب حل الإشكالية . ذلك أن تحديد المشرق والمغرب حسب العرف السائد في العصور الوسطى الإسلامية جرى على أساس

(١) العبر : ٦ : ١٩٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ ، بيروت ١٩٥٦ .

(٣) عبد الكريم بيصعين : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

الموقع من عاصمة الخلافة ؛ فما كان شرقيها يعد مشرقاً وما كان غربيها يعتبر مغرباً .

لكن التعويل على هذا المعيار يقود إلى تضليل ؛ نظراً لانتقال العاصمة حسب عصور التاريخ الإسلامي ما بين المدينة ودمشق وبغداد . ومن ثم تسقط الرؤية السياسية والإدارية في تحديد مصطلح المغرب .

كما أن التعويل على الجغرافيا الطبيعية وحدها يقود إلى ذات المنزلق . إذ لو اعتمدنا وحدة الإقليم كمعيار ؛ فإن مصر تنضاف إلى بلاد المغرب ؛ وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين القدامى .

لذلك لا مناص من الإستناد إلى الوحدة الطبيعية والبشرية كمعيار ؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون أيضاً[1] حين ذهب إلى أن بلاد المغرب هي «ديار البربر ومواطنهم». ونحن نقر بوجاهة رأيه تأسيساً على اختصاص البربر بسمات مميزة في أنماط الحياة وطرائق المعاش والعوائد والأعراف واللغات . كما نأخذ بوجهة نظره في تقسيم خريطة المغرب الطبيعية والبشرية إلى ثلاثة أقاليم هي المغرب الأدنى وإفريقية ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى[2] . خاصة وأن هذا التقسيم من التقسيمات الإدارية القرو ـ وسطوية ؛ كذا من التقسيمات الإدارية والسياسية الكلاسيكية والحديثة .

وبالمثل يمكن ـ في ضوء ذلك ـ حلحلة إشكالية مصطلح «المغرب الأقصى» . وننوه أن هذه التسمية لم يجر الأخذ بها قبل القرن الخامس الهجري[3] . واستناداً إلى إجماع شلة من المؤرخين والجغرافيين الثقاة ـ مثل ابن عذارى[4] وابن أبي زرع[5] وصاحب كتاب[6] الاستبصار ـ نستطيع أن

(١) العبر : ٦ : ١٧٥ .
(٢) نفسه : ١٩٣ ـ ٢٠٥ .
(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص ٤ ـ ٢٠ ، الجزائر ١٩٥٧ .
(٤) البيان المغرب، جـ ١ ، ص ٢١١ ، باريس ١٩٤٨ .
(٥) القرطاسي ، ص ٢٢ ، الرباط ١٩٧٢ .
(٦) مجهول : ص ١٩٩ ، الإسكندرية ١٩٥٨ .

نعرف المصطلح بأنه يشمل الأراضي الواقعة بين تلمسان شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، وبين سبتة وطنجة شمالاً ، وصحراء سجلماسة جنوباً .

ويتميز هذا الإقليم بتنوع تضاريسه ما بين جبال وسهول وصحارى . فجبال غمارة ببلاد الريف التي تمتد حتى فاس(١) تشكل حماية طبيعية لأي كيان سياسي من ناحية ، كما تشجع على حركات الإنتزاء ضد الحكومات المركزية من ناحية أخرى(٢) . أما سلاسل جبال فازاز ـ على مسيرة ثلاثين ميلاً من فاس ـ فقد اشتهرت بأشجارها السامقة وطبيعتها الوعرة التي جعلتها منطقة طرد بشري خصوصاً في فصل الشتاء حيث تكتس قممها بالثلوج(٣) . وعلى العكس تمتد جبال درن من الجنوب الغربي مخترقة شمالي القارة حتى تصل إلى طرابلس شرقاً(٤) . وهي منتجع طيب للرعي وموئل زاخر لمعدن النحاس الذي تنازعت بسببه القوى الداخلية والخارجية .

. إلى جانب الجبال تميزت طبيعة المغرب الأقصى بوجود عدد من السهول أو الفحوص أو البسائط تشقها أنهار ووديان أهلتها للعمران واجتذاب السكان ؛ خصوصاً سهل سايس حيث مدينة فاس قصبة الأدارسة . كما تتتالى السهول على ساحل المحيط ؛ كسهل غمارة وسهول تامسنا ثم سهل دكالة الذي يمتد جنوباً حتى وادي تنسيفت . ومعظم هذه السهول تشقها أنهار تصب في المحيط الأطلسي ؛ من أهمها واد أم الربيع وواد درعة ونهر ملوية وسبو وأخيراً واد إيجلي في السوس الأقصى(٥) .

وقد ساعدت هذه الطبيعة الجغرافية على تنوع وثراء الحياة الاقتصادية ، وهو أمر ساعد بدوره على صياغة نمط الحياة سواء أكان حضرياً أم بدوياً . ودون

---

(١) ابن خلدون : ٦ : ٤٣٦ .
(٢) الاستبصار: ١٩٠ .
(٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٢٥ ، باريس ١٩١١ .
(٤) الإدريسي : ٤ .
(٥) البكري: ١٦٢ .

دخول في التفصيلات يمكن الجزم بأن ثراء الإقليم كفل له نوعاً من الاكتفاء الذاتي الذي ساعد على قيام دول مستقلة قادرة على البقاء والإستمرار رغم ما كان بينها من تنافس وصراع . كما كان هذا الثراء من أسباب تدخل قوى خارجية كبرى تصارعت لمد نفوذها على هذا الإقليم الغني .

تشكل الزراعة أهم قوى الإنتاج الدائمة في القارة. فقد اشتهر المغرب الأقصى بإنتاج كافة المحاصيل فضلاً عن الفواكه والغروس والنخيل والزيتون[1] . وامتدت المراعي سواء في السهول أو على قمم الجبال أو في الصحراء لتجعل من الثروة الحيوانية قوة إنتاج هامة[2] .

وقامت صناعة أولية نظراً لوفرة المعادن وخاصةً الحديد والنحاس في بلاد السوس الأقصى[3]. ونظراً لوفرة الفضة في مناجم درعة وتدغة راجت صناعة الأواني الفضية التي كانت تصدر إلى الخارج[4] . واشتدت بلاد السوس كذلك بصناعات تحويلية كالسكر[5] . فضلاً عن الخمور والزيتون وغيرها مما تتطلبه «ضرورات العمران»[6] .

وبديهي أن تزدهر التجارة الداخلية والخارجية نتيجة أهمية موقع وموضع المغرب الأقصى . فقد غمرت الأسواق بالسلع الزراعية والصناعية خاصةً في نفيس وأغمات[7] . كما ازدهرت التجارة الخارجية مع المشرق ودول المغرب وبلاد الأندلس والسودان[8] .

على أن هذه المقدرات الإقتصادية الهائلة أسيء استغلالها قبيل قيام دولة

(١) نفسه : ١٩٣ .
(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٨٤، ليدن ١٩٣٨ .
(٣) البكري: ١٦٢ .
(٤) عبد الكريم بيصعين : المرجع السابق، ص ٦٠ .
(٥) البكري : ١٦١ .
(٦) ابن خلدون: المقدمة ٣١٣.
(٧) البكري: ١٥٢ .
(٨) نفسه: ١٥٩ .

الأدارسة . ويرجع ذلك إلى السياسة الإبتزازية الأموية إبان الفتح أو بعده[١] . كما أسهمت ثورات الخوارج في تخريب الإقليم . وإذا كـانت دولتي الخوارج في تامسنا وتافيللت تمتعتا بازدهار إقتصادي ؛ فإن الأقاليم الأخرى التي عمتها الفوضى السياسية قبيل قيام دولة الأدارسة كانت من المجاعات والأوبئة[٢] .

وبديهي أن تنعكس المشكلات الاقتصادية على الأوضاع الاجتماعية . إذ ساوت السخائم العصبية القبلية والعنصرية تلك الأقاليم التي قامت فيها الدولة الإدريسية . لقد شهدت «فسيفساء» إثنية متعددة ومتصارعة . ففضلاً عن البربر وجد العرب والفرس والسودان والصقالبة واليهود .

وكان من الممكن أن تتعايش هذه العناصر ويزدهر العمران في ظل حكم عادل وقادر . لكن مفاسد الإدارة الأموية أججت نعرات العصبية وسخائم العنصرية . فالبربر سكان البلاد الأصليين ؛ كانوا شعوباً أو قبائل شتى ؛ كشعب المصامدة الذين خربت قبائلهم ما بين ممر تاز والسوس الأقصى وقد تعرضوا لحملات ولاة القيروان وعمالهم من أجل السلب والسبي . وهناك قبائل زناتة البدوية التي انتزت حالة الفوضى السياسية لتثخن في القبائل المستقرة كمكناسة وأوروبة ولواتة وتطردها من مضاربها إما إلى أقصى الغرب[٣] أو إلى تلمسان[٤] .

أما العرب ؛ فقد وفدوا إلى الإقليم بعد الفتح واستقروا في بلاد الهبط ومدن البصرة وأغمات ونغيس[٥]. وقد نجحت بعض القبائل في تأسيس دولة في نكور سنة ٩٢ هـ . وإذا كان الوجود العربي المستقر في المغرب الأقصى ساعد على تعريب البربر[٦] ؛ إلا أنه أفضى إلى إثارة الصراعات بين العرب ،

---

(١) ابن عذاري : ١ : ٨٣.

(٢) محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، ص ٢٧٢، ٢٧٣، القاهرة ١٩٨٦ .

(٣) عبد الكريم بيصعين: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٤) البكري: ٣٦، ٩٣، ١٤١.

(٥) نفسه : ١٥٢ .

(٦) محمود إسماعيل: الخوارج، ٢٠٧ .

قيسية ويمنية وبينهما معاً وبين البربر[١] .

أما الفرس ؛ فقد وفدوا إلى الإقليم إبان حركة الفتوح . كما وفدت عناصر خراسانية برفقة الحملات العسكرية العباسية التي أنفذت لقمع ثورات البربر. ولم يلعب الفرس دوراً ذا بال في السياسة بقدر فعالية نشاطهم التجاري والعمراني ؛ كتأسيس المدن وتشييد قنوات الري المغطاة[٢] . إلا أن وجودهم في بعض المناطق التي استقر بها العرب لم يخل من إثارة نزعات شعوبية خاصة في بلاد الريف وبلاد الهبط[٣] .

كما أن عناصر أندلسية وفدت إلى المغرب الأقصى لأسباب سياسية واقتصادية . وغالباً ما كانت تستقر في الجهات الشمالية أو في المدن الهامة[٤] . وقدر لها أن تلعب دوراً عمرانياً إيجابياً فضلاً عن آخر سياسي سلبي خصوصاً بعد قيام دولة الأدارسة .

وبالمثل وفدت من الأندلس عناصر صقلبية لتعمل في أسطول في دولة نكور[٥] أو لتباع في أسواق الرقيق . وكثير ما تفجر الصراع بين هذه العناصر وبين سكان البلاد من البربر[٦] .

أما اليهود ؛ فقد وفدوا إلى المغرب الأقصى منذ وقت مبكر[٧] . وقد هيمنوا على النشاط المالي فضلاً عن التعدين[٨] . وقد شكلوا طبقة موسرة كانت تتعرض دوماً للمصادرة والاضطهاد .

---

(١) نفسه : ٢٨، ٢٩ .
(٢) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ٨٢ وما بعدها. فاس ١٩٧٧ .
(٣) البكري: ١١٥ .
(٤) نفسه : ١٠٩ .
(٥) نفسه : ٩٣ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) عبد الكريم بيصعين : ٩٠ .
(٨) الاستبصار : ٢٠٢ .

ومن أفريقية السوداء وفدت عناصر سودانية استقرت في السوس الأقصى وأغمات[1] وواحة تافيللت . وقد استخدموا في إرشاد وحراسة القوافل التجارية ، كما جرى استرقاق الكثيرين منهم ليباعوا في أسواق النخاسة[2] .

وإذا جاز الحديث عن البناء الطبقي في المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة ؛ يمكن القول بظهور الطبقات نتيجة التباين في حيازة الثروة ؛ برغم غلبة البنى القبلية[3] على الصعيد الاجتماعي . فقد تبلورت أرستقراطية تقتني[4] الأرض وتحتكر استغلال المناجم وتشتغل بالتجارة خصوصاً مع بلاد السودان . كما وجدت طبقة وسطى حرفية أغلب شرائحها من الوافدين الفرس والأندلسيين واليهود . وفي سفح الهرم الاجتماعي تقف طبقة العوام وأغلبها من البربر والسودان .

وقد أدى هذا التباين الطبقي إلى صراعات مهدت لنجاح الدعوة الإدريسية الزيدية ـ الإعتزالية التي تبنت العدالة الاجتماعية .

أما عن الخريطة المذهبية؛ فقد صيغت على أساس الاختلاف والتنافر برغم غلبة الإسلام بين معظم السكان . كما تعثرت حركة التعريب ـ على خلاف ما ذهب إليه بعض الدارسين ـ[5] نتيجة مفاسد الإدارة الأموية وتمركز العناصر العربية في إمارة نكور ، وجنوح بعض القبائل إلى معارضة العروبة كقبيلة أوربة التي عانت من سياسة التعصب العربي إبان الفتح وبعده[6] ؛ حتى وصل الحال إلى تمسك بعض القبائل الأخرى بدياناتها القديمة نكاية في

(١) البكري : ١٥٨ ، ابن حوقل : ٩٥.

(٢) البكري : ١٠٦ .

(٣) راجع : إيف لاكوست : العلامة ابن خلدون، ص ٢٨ ، بيروت ١٩٧٤ ، محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، ص ٢٢ ، الدار البيضاء ١٩٨١ .

(٤) انظر : سامية توفيق : انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب ، ص ١١٠ ، القاهرة ١٩٨٦ .

(٥) نفسه : ١١١ ـ ١١٢.

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٨ ، ليدن ١٩٢٠ .

الفـاتحين العرب . فـالنصرانيـة لم تعـدم وجـود أتبـاع حتى في بعض المـدن الشمالية ؛ كانوا يتبعون كنيسة الإسكندرية[١] . وانتشـر اليهود في نكـور وداي وقازاز وتادلا ودرعة[٢] . كما أن بقايا الوثنية ـ كعبادة الكبش ـ ظلت موجودة على شكل جيوب منغلقة في مرتفعـات المغرب الأقصى كمـا لاحظ صاحب كتـاب الإستبصار[٣] . بل إن بعض القبـائل التي اعتنقت الإسـلام لونتـه بألـوان هذه المعتقدات القديمة سواء في الطقوس أو الاعتقاد في الكهانة والسحر أو ممارسة عادات جنسية تهتكية .

أمـا عن المذاهب التي وجـدت بالمغـرب الأقصى خلال القـرن الثـاني الهجري ؛ فكان المـذهب الخارجي الصفـري[٤] أكثرهـا انتشاراً . وليس أدل على سيـادتـه من أن دولتي المـدراريين والبـورغـواطيين تـأسستـا انـطلاقـاً من إديولوجية صفرية . كما وجدت إمارات صفرية صغرى بالمغرب الأقصى ؛ مثل إمارة بني وكيل وإمارة برغوت بن سعيد الترادي[٥] .

وانتشر مذهب المعتزلة بين قبائل أوربة وزناتـة ومزاتـة[٦] ؛ كما وجـدت تجمعات واصلية في درعة والسوس الأقصى وشرق ملوية وجبال فازاز[٧] .

وغلب مذهب مالك على إمارة نكور . كما انتشر في سلا وأصيله فضـلاً عن بـلاد القبلة ، إذ تمركـز المالكيـة في الأربطة لجهـاد البورغـواطيين ، وفي السوس الأقصى لجهاد اليهود[٨] .

ووجد مذهب أبي حنيفة طريقه إلى المغرب الأقصى خصوصاً بعـد قيام

(١) البكري : ١٦١ .
(٢) عبد الكريم بيصعين : ١٠٤ .
(٣) مجهول : ص ٢٠٠ .
(٤) محمود إسماعيل : الخوارج، ص ٤٢ ، وما بعدها .
(٥) البكري : ١٣٧ .
(٦) ابن حوقل : ٩٤ .
(٧) عبد الكريم بيصعين : ١١٢ .
(٨) ابن حوقل : ٨٢، عبد الكريم بيصعين : ١١٤ .

الخلافة العباسية[1] . كما بدأت إرهاصات التشيع تجتاح المغرب الأقصى مع الدعوة الزيدية الاعتزالية ؛ كما سنوضح في الفصل التالي .

هكذا شهد الإقليم فسيفساء دينية ومذهبية أسهمت في تأجيج السخائم العصبية واتخذت أغطية لحركات سياسية مهدت لقيام الدولة الإدريسية .

ولن نسترسل طويلاً في استعراض التطور السياسي بالإقليم إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة . فمعلوم أن المغرب الأقصى فتح على إثر حملات موسى بن نصير . ومعلوم أيضاً أنه أصبح تابعاً لولاة بني أمية بالقيروان الذين عينوا عمالهم على سائر أقاليمه. ونظراً لتطرفه جغرافياً ؛ عانى من مفاسد الإدارة الأموية أكثر من سائر الأقاليم الأخرى . وهذا يفسر سر إقبال قبائله على اعتناق المذهب الخارجي الصفري المتطرف . كما يفسر أيضاً سبقها إلى إعلان الثورة على بني أمية ، كذا سبقها في تتويج ثوراتها بتأسيس دول مستقلة عن الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية .

وبرغم تأسيس هذه الدول ؛ سواء أكانت سنية كدولة نكور أو خارجية كدولتي بورغواطة وبن مدرار ؛ فإن أياً منها لم تستطع تحقيق وحدة الإقليم سياسياً . بل أدى الصراع بينها إلى ظهور إمارات طائفية صغرى نتيجة لحالة الفراغ السياسي .

هكذا شهد المغرب الأقصى حالة من التمزق والتشرذم السياس والإثني والمذهبي أفضت إلى تهيئة الظروف لنجاح الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية التي مهدت لقيام دولة الأدارسة .

أما عن أصول الدعوة وأساليبها وأهدافها ؛ فذلك موضوع المبحث التالي .

---

(١) السلاوي: الاستقصا، جـ ١ ، ص ١٣٧ . الدار البيضاء ١٩٥٤ .

الفصل الثالث

الدعوة الزيدية في بلاد المغرب

سبق إثبات انبثاق الحركات الثورية الزيدية في الشرق عن دعوات سرية منظمة . كما سبق الحديث عن دعوة سرية أحكمها المعتزلة المتعاطفون مع ثورة زيد بن علي والمشاركون في الثورات الزيدية التالية ضد بني العباس بعد أن اندمجوا في الدعوة الزيدية التي أسسها محمد النفس الزكية .

وما نحاول إثباته في هذا المبحث ـ الذي نزعم جدته ـ أن الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية وصلت إلى المغرب ومهدت لقيام دولة الأدارسة . فما هي القرائن والأدلة على وصول كل من الدعوتين ـ إبان استقلال كل منهما عن الأخرى ـ إلى بلاد المغرب ؟ وما هي الأسباب التي أفضت إلى اندماجهما معاً في دعوة واحدة سواء في الشرق أم في المغرب ؟

بخصوص جهود الزيدية في المغرب ؛ نعلم أنها بدأت بعد قيام الخلافة العباسية . يقول ابن الخطيب[1] : « كان للزيدية من الحسنيين الطالبيين ذرية علي بن أبي طالب دعوة زاحموا بها أيام العباسيين » . وكان الدعاة يفدون من الشرق إلى إفريقية ـ التي كانت كذلك مستقر دعاة الخوارج من قبل ودعاة الفواطم من بعد ـ باعتبارها موسطة المغرب . وأول من وصلها من دعاة الزيدية عيسى بن عبد الله الذي أنفذه محمد النفس الزكية «فأجابه خلق كثير من قبائل

(١) أعمال الأعلام، جـ٣، ص ١٨٨، الدار البيضاء ١٩٦٤ .

البربر»[١] . ومع ذلك عاد أدراجه إلى الشرق ربما خوفاً من عيون العباسيين بإفريقية أو للمشاركة عن كثب في الثورات الزيدية .

وقد بعث محمد النفس الزكية أخاه سليمان إلى بلاد المغرب ؛ فنزل بتلمسان[٢] بعد رحلة طويلة عبر مصر وبلاد النوبة والسودان وبلاد الزاب . ويبدو أن الخوف من عيون العباسيين كان من وراء تحاشي سليمان اتخاذ الطريق الساحلي المباشر من برقة إلى تلمسان . وفي تلمسان أخذ يدعو للحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بعد مقتل محمد النفس الزكية . ويبدو أنه أحرز نجاحاً ملحوظاً قبل عودته إلى الشرق للمشاركة في ثورة الحسين ضد العباسيين . وحل محله إدريس بن عبد الله الذي كان يدعو كذلك لإمامة الحسين بن علي . لكن مقامه في تلمسان لم يطل إذا اضطر للعودة كذلك إلى الشرق للمشاركة في معركة فخ المشهورة[٣] .

وبعد الكارثة التي حلت بالعلويين بفخ ؛ عاد سليمان إلى تلمسان مرة أخرى يدعو لإمامة يحيى بن عبد الله الذي نجح في تأسيس دولة بطبرستان[٤] . ثم لحق به إدريس بن عبد الله للمرة الثانية من أجل الدعوة لأخيه يحيى كذلك . فلما علم بنهايته أقام الدعوة لنفسه .

وفي نفس الوقت وصل إلى إفريقية ـ لنفس الغرض ـ داوود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٥] . وهذا يعني الكشف عن حقيقتين هامتين ؛ الأولى أن الدعوة الزيدية واصلت مسيرتها بعد معركة فخ . والثانية أن إدريس بن عبد الله عندما وصل تلمسان للمرة الثانية ومنها انتقل إلى طنجة واتصل بزعيم قبيلة أوربة كان يعد العدة من خلال دعوة محكمة وتنظيم

---

(١) ابن أبي زرع: ١٥ .

(٢) نفسه : ١٦ .

(٣) نفسه المصدر والصفحة.

(٤) ابن خلدون: ٤ : ٣٦.

(٥) المغرب : ١٢٢ .

دقيق لتأسيس دولة علوية بالمغرب الأقصى . دليلنا على ذلك أنه إبان رحلته من مكة عبر مصر إلى المغرب كان يرافقه مولاه راشد الذي لم يكن اختياره عبثاً . إذ نعلم أنه ينتمي في نسبه إلى قبيلة أوربة[1] وهو أمر يتيح لإدريس الاتصال بإسحق بن محمود بن عبد الحميد زعيم أوربة لتأسيس الدولة المنشودة[2] . يقول السنوسي : « وراشد بن منصت الأوروبي كان قد سبي مع أبيه في غزوة موسى بن نصير . وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير . ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب » .

ونرى أن دور راشد لم يكن مجرد أن «يدله على المغرب» ؛ ذلك أن إدريس كان على دراية بمسالك المغرب الذي قدم إليه من قبل كداعية محمد النفس الزكية كما أوضحنا سالفاً. كانت مهمة راشد إذن هي تمهيد الاتصال بين إدريس وإسحق الأوربي لتأسيس دولة بني إدريس . وإجماع المصادر على اعتناق إسحق مذهب المعتزلة ـ كما سنوضح فيما بعد ـ يقودنا إلى حقيقة اندماج دعوتي الزيدية والمعتزلة في بلاد الغرب قبل قيام دولة الأدارسة . تلك الحقيقة التي أشار إليها المقدس[3] في إشارة عابره لكنها جد خطيرة .

وقد سبق إثبات حقيقة اندماج الدعوتين في الشرق ، كما أثبتنا في دراسة سابقة[4] أن دعوة المعتزلة أثمرت في بلاد المغرب قبل اندماجها في الدعوة الزيدية . إذ قدر لها الإنتشار في إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى على نحو خاص . لذلك لن نخوض في الموضوع إلا بالقدر الذي يوضح طبيعة العلاقة بين إدريس وبين إسحق الأوربي .

ذكر البلخي[5] أن « واصل أنفذ إلى المغرب عبد الله بن المبارك ؛ فأجابه

---

(١) عبد اللطيف السعداني : المرجع السابق ، ص ١٥ .
(٢) الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، ص ٤٧ ، القاهرة ١٩٥٤ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٣ـ ٢٤٤ ، ليدن ١٩٠٦ .
(٤) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٢٣ وما بعدها.
(٥) مقالات الإسلاميين ، ص ٦٦ ، تونس ١٩٧٤ .

الخلق » . ونعلم أن دعاة المعتزلة الأوائل اتخذوا من إفريقية مقراً حيث كـا وا يتخفون في ملابس العلماء والتجار ويتصلون بزعماء القبـائل خـاصةً من زنـاتة وأوربـة[1] . ولما كـانت زناتـة تضرب في كـل نواحي المغـرب من بـرقـة إلى طنجة ؛ فهز العيـن انتشـار الاعتزال من سائر ربوع بـلاد الغرب وخـاصةً بـلاد المغرب الأقصى ؛ حيث اعتنقته قبيلة أوربة التي كانت تتطلع إلى دور سياسي مرموق .

يرجح ذلك ما أقدمت عليه من إعـداد سياسي وعسكـري ؛ إذ أن مدينـة البيضاء وحدها حـوت « مائة ألف معتزلي يحملون السلاح »[2] . ومدينة طنجة كان كل سكانها من المعتزلة[3] .

وما جرى من اندماج الدعوتين الزيدية والاعتزالية في الشرق والمغرب لم يفت من طموحات قبيلة أوربة . فلم تمانع في العمل على تأسيس دولة تكـون رياستها لإمام علوي زيدي ؛ طالما كانت هي العصبية المؤسسة . وعلى ذلك نرجح أن إسحق كان يعلم سلفاً بقدوم إدريس لتقلد حكم هذه الدولة ، كما كان يعد العدة لاستقباله ومؤازرتـه . وإلا فما تفسيـر قعوده عن تـأسيس الدولـة قبل مقدم إدريس ؟ وما تفسيـر نزول الأخيـر بطنجـة وإنفاذ المـولى راشد لـلإتصال بإسحق ؟ وأخيراً ما تفسير عدم إقامـة إدريس بتلمسان التي كـانت أهم معاقـل الدعوة الزيدية ؟

يقودنا هذا إلى طرح السؤال الأساسي ؛ لماذا وكيف اندمجت الدعـوتين الزيدية والاعتزالية في المغرب وتضافرتا على تأسيس دولة الأدارسة ؛ أثبتنا من قبل وقوع هذا الإندماج في الشرق فكرياً ودعائياً وسيـاسياً وعسكـرياً . وأثبتنـا كذلك إخفاق «الشروع السياسي» الزيدي المعتزلي لإقامة دولة في الشرق؛ نـظراً لقوة الدولة العباسية وهيمنتها على قلب «دار الإسـلام» . لذلـك اتبع الـزيديـة

---

(١) نفسه : ١١٠ .

(٢) نفسه : ١٠٩ .

(٣) نفسه : ١١٠ .

والمعتزلة نفس سياسة الخوارج في اللجوء إلى المغرب، خاصـةً وأن بني العباس لم يدخروا وسعاً في اضطهاد الزيدية والمعتزلة معاً بعد معركة فخ . وهذا يفسر قدوم أعداد غفيرة منهم إلى بلاد المغـرب عمومـاً والمغرب الأقصى على نحـو خاص[1]. إن التوقيت المشترك لقدوم الزيدية والمعتزلـة إلى المغرب الأقصى لم يكن مجـرد صدفـة مجانيـة بل كـان نتيجة تـدبير وإعـداد سابق لتحقيق هـدف موحد .

ومن سياق الأحداث نعلم أن كفة المعتزلة من المغرب الأقصى كانت أرجح من كفـة الزيـدية ، ولنـا أن نتساءل ، لمـاذا احتوت الـدعوة الـزيديـة نظيـرتها الاعتزالية في المغرب برغم رجحان كفة الأخيرة ؟

ليس لذلك من تفسير إلا أن يكون قد حدث اتفاق مسبق لتوحيد الدعوتين وتكريسهما معاً لتأسيس دولة في المغرب الأقصى . لم يكن ذلك بمستغرب بعد أن اتحدت الدعوتين من قبل في الشرق كما سبق إيضاحه: حتى قيل بأن المعتزلة في الشرق كانوا إحدى فرق الزيدية[2] . لقد احتوى الاعتـزال التشيع الـزيدي فكرياً حتى أن الزيدية عظموا شيوخ المعتزلة بدرجة تعظيمهم آل البيت[3] .

أما على الصعيد السياسي ؛ فقد احتوى التشيع الزيدي الإعتزال : نظراً لأن زعماء المعتزلة ما كان بوسعهم منافسة آل البيت إذا ما تعلق الأمر بالزعـامة السياسية . ولـم يجد المعتزلة غضاضـة في ذلك خـاصةً وأن فكـرهم السياسي يشترط العمل تحت راية إمام عادل ليس إلاّ .

كل هذا يفسر مناصرة معتزلة المغرب إدريس بن عبد الله سياسياً . ونرى أن دعاتهم مهدوا له أمر رحلته منْ مصر إلى طنجة حتى لقائه مع إسحق الأوربي زعيم معتزلة المغرب الأقصى وفق إعداد مسبق وخطة مدروسة .

---

(١) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال، ص ٢٢٦ .
(٢) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ٢٢ .
(٣) الشهرستاني : جـ ١ ، ص ١٦٢ .

إن هـذا الإعداد والتخـطيط من أجل إقـامـة دولـة في المغـرب الأقصى يترأسها إمـام زيدي ؛ قمين بـإنهاء الخـلاف المثار بين الـدارسين حول تـأويل نصوص وردت بخصوص اللقاء بين إدريس بن عبد الله وإسحق الأوربي . كما أنه خليق بحلحلة «الإشكالية» الملغزة التي طالما توقف الدارسون عن البت فيها أو أخطأوا في أحكامهم بصددها .

وهنـاك عرضـاً لهذه النصـوص ، وتحليـلاً لمضـامينهـا في ضـوء رؤيتنـا الجديدة للقضية .

يقول البكري[1] : « نزل إدريس على إسحق الأوربي المعتزلي؛ فتـابعه على مـذهبه » . ويقـول جغرافي مجهـول[2] : « كان إسحق معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه » . ويقول البلخي[3] : « اشتمل إسحق الأوربي على إدريس بن عبد الله حين ورد عليه ؛ فأدخله في الاعتزال » . ويضيف « إن أنصار ولد إدريس بن عبد الله . . . . إلى يومنا بطنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة »[4] . ويقول ابن الفقيه[5] : « والغالب على طنجة المعتزلة. وعميدهم إسحق بن عبد الحميد وهو صاحب إدريس » . ويقول ابن أبي زرع[6] : « . . . فنزل إدريس على صاحبها إسحق الأوربي المعتزلي؛ فأقبل عليه إسحق وأكرمه وبالغ في بره ؛ فأظهر له المولى إدريس أمره وعرفه بنفسه ؛ فوافقـه على حالـه وأنزله داره وتولى خدمته والعناية بشؤونه » .

بـرغم اختلاف هـذه المصـادر حـول من مِنَ الـطرفين وافق الآخـر على مذهبـه ؛ نرى أن الخلاف غيـر ذي موضوع خصوصاً وأن المـذهبين الاعتزالي

(١) المغرب : ١١٨ .
(٢) الاستبصار: ١٦٥ .
(٣) مقالات الإسلامية : ١٠٩ .
(٤) نفسه : ١١٩ .
(٥) مختصر كتاب البلدان : ٨٠: ابريل ١٨٨٥ .
(٦) القرطاسي : ١٩ .

والزيدي سبق أن اندمجا فكرياً وسياسياً . لكن ذلك لا يعني أن إدريس تخلى عن المذهب الزيدي ؛ كما رأى أحد الدارسين[1] مبرراً ما تظهره النصوص للوهلة الأولى من تحول إدريس إلى الاعتزال على أنه من باب «التقية»[2] .

ما نراه في هذا الصدد أن التشيع الزيدي جرى احتواؤه فكرياً من قبل الاعتزال ، أما سياسياً فقد حدث العكس ، وهذا ما تدل عليه الأحداث التالية ؛ حيث كانت زعامة الدولة التي تضافر الطرفان على إقامتها ، لإدريس بن عبد الله الإمام الزيدي . وهنا تبرز قيمة نص ابن أبي زرع السابق الذي يؤكد صدق ما نذهب إليه من موافقة إدريس مذهب إسحق وموافقة إسحق سياسة إدريس .

وليس أدل على ضآلة الجانب المذهبي بالقياس للإعتبار السياسي من عدم إعلان إدريس عن حقيقة مذهبه في خطبته الأولى بعد أن بايعته أوربة والقبائل الأخرى سنة ١٧٢ هـ . فلم يفصح عن زيديته أو اعتزاله بقدر ما اهتم بإبراز كونه إماماً عادلاً من آل البيت. ولسوف نجد مصداق ذلك في ما شجر بعد من خلاف بين إدريس الثاني وإسحق الأوربي : حيث غلبت الأسباب السياسية على الجوانب المذهبية[3] .

لقد اقتضت الحكمة عدم إثارة «المسألة المذهبية» في بلاد تعددت مذاهب سكانها ما بين شيعية واعتزالية وسنية وخارجية . وقد فطن ابن خلدون[4] إلى حقيقة عزوف إدريس الأول عن إعلان زيديته حين قال : « بموت يحيى بن عبد الله . . . خفيت دعوة الزيدية جيناً من الدهر » .

خلاصة القول ـ أن الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية نجحت في الإفادة من ظروف المغرب الأقصى في تأسيس دولة نواة تطلعت للتوسع شرقاً لتضم سائر العالم الإسلامي . وإذ نعوّل على نظرية ابن خلدون في قيام الدول ؛ نرى أن

---

(١) عبد اللطيف السعداني : ٢٠ .
(٢) نفسه : ٢١ .
(٣) البكري : ١٢٣ .
(٤) العبر : ٤ : ٤٦ .

المذهب الزيدي ـ الاعتزالي شكل إديولوجية هذه الدولة بينما شكلت قبيلة أوربة عصبيتها على الأقل في مرحلة التأسيس[1] . ومن ثم تسقط دعاوى معظم الدارسين التي تفسر قيام دولة الأدارسة كحادث عفوي مجاني ؛ لنجزم بأنه نتيجة إعداد وتخطيط مسبق أحكمته الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية التي اتسقت مع طموحات العصبية ممثلة في قبيلة أوربة. أما عن كيف اضطلعت العصبية بمهمة التأسيس ؛ فهذا ما سيوضحه المبحث التالي .

(١) ابن خلدون: ٦ : ٢٩٦ .

الفصـل الرابع

تـأسيس دولـة الأدارسـة

لا نعلم عن حياة إدريس بن عبد الله المؤسس قبل قيام دولة الأدارسة إلا النذر اليسير(١) . إذ عرفناه داعية بتلمسان مدة يدعـو لمحمد النفس الـزكية ثم لأخيـه يحيى بن عبد الله ثم مقـاتلاً بفـخ وهاربـاً منها عبـر مصـر إلى المغـرب الأقصى ؛ حيث التقى بـإسحق الأوروبي الذي أخـذ له البيعـة من قبائله سنـة ١٧٢ هـ.

وقد نسج المؤرخون روايات اسطورية حول رحلة إدريس بن عبد الله إلى المغرب ، إذ تصوره مطارداً مغامـراً تمكن من تأسيس دولة دون سابق إعداد أو تدبير . ومن هنا جاء الاختلاف والتناقض حول كيفية الهرب ووقائع الرحلة .

والصواب ـ فيما نرى ـ أن دعاة الزيدية أمنوا له الإقامة بمصر والخروج منها إلى برقة حيث تكفل دعاة المعتزلة بأمر رحلتـه إلى المغرب الأقصى . دليلنـا على ذلك وجود تنظيم علوي زيدي في مصر استمر حتى بعـد قيام دولـة الأدارسة ، مصداق ذلك ما قيل عن تشيع والي مصر علي بن سليمان الذي دبر له الإقامة بها وأمر خروجه منها(٢) . وما ذكر من أن واضح مولى صالح بن الخليفـة المنصور

(١) معلوم أنه ابن عاتكة المخزومية التي أنجب أبوه عبد الله منها أخويه عيسى وسليمـان ، كما تزوج أبوه أيضاً من هند ابنة أبي عبيدة من آل عبد العزي وأنجب منها إخوته محمد النفس الزكية ومـوسى. أما أخـواه يحيى وإبراهيم فهمـا من أم ثالثـة تسمى قريبـة بنت عبد الله .

(٢) ابن أبي زرع : ١٧ .

صاحب بريد مصر هو الذي اضطلع بتلك المهمة[1]. وأياً ما كان الأمر نرى أن جهاز الدعوة في مصر كان على علم بمقدم إدريس برفقة مولاه راشد . يفهم ذلك من قول ابن خلدون[2] أن « واضح علم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان به مستخفياً ولم ير شيئاً أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب ».

ونجاح إدريس وراشد في الخروج من مصر إلى برقة دليل على تشيع الكثيرين من عمال العباسيين . وخروجه مستتراً في زي غلام لراشد « يأمره فيأتمر له » قرينة على البراعة في العمل السياسي السري الزيدي من ناحية ، وعلى تعقب بني العباس من بقي من العلويين بعد فخ للحؤول دون استمرارية دعوتهم من ناحية أخرى .

على كل حال - اتجه إدريس برفقة مولاه راشد إلى برقة ومنها إلى القيروان ثم إلى تلمسان فطنجة . وكلها مدن تجارية هامة منثورة على الطريق الساحلي بين المشرق والمغرب . وهو طريق يغص بالقوافل التجارية جيئة وذهاباً ؛ لطالما ارتاده تجار المعتزلة « الذين شكلوا نخبة من الأرستقراطية الفكرية المنحدرة من أسر تجارية » على حد قول باحث معروف[3] . وهو أمر لا يخلو من دلالة عن دور المعتزلة ورعاتهم في المغرب في تمهيد الطريق لإدريس من برقة إلى طنجة[4] .

من الثابت أن إدريس حتى وصوله تلمسان كان يدعو لإمامة أخيه يحيى بن عبد الله الذي أسس دولة زيدية في بلاد الديلم . فلما وافاه خبر نهايته - عن

---

(١) ابن الخطيب: ١٩٠.

(٢) العبر: ٤ : ٢٤.

(٣) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص ٦٢، تونس ١٩٦٨.

(٤) عن معتزلة المغرب الأوسط، راجع : محمود إسماعيل: الخوارج: ٦٠ ، ٦١، وعن معتزلة المغرب الأقصى راجع لنفس المؤلف : مغربيات : ١٢٨ .

طريق جهاز الدعوة بطبيعة الحال ـ أخذ يدعو لنفسه[1] . وعدم بقائه بتلمسان برغم جهوده السابقة وجهود غيره في الدعوة للمذهب الزيدي ـ وتوجهه مباشرة إلى طنجة واتصاله بإسحق الأوربي لتأسيس الدولة ؛ أمر له دلالته على اتفاق مسبق بقيام الدولة في المغرب الأقصى . ذلك الاتفاق الذي جرى بين الزيدية والمعتزلة بعد اندماج دعوتيهما كما أوضحنا من قبل .

وليس أدل على ذلك من قول أحد الباحثين الثقاة[2] « كانت طنجة معقلاً لدعوة اعتزالية تتصل بالقبائل لتكوين الخلايا » . يؤكد ذلك إنقاذ إدريس مولاه راشد من طنجة إلى وليلى للاتصال بإسحاق الأوروبي وإعلامه بمقدم إدريس. وبالفعل تم الاتفاق على أن ينزل إدريس مدينة وليلى حيث رحب إسوق بمقدمه وشرعاً في إعداد العدة لتأسيس الدولة[3] . وبالفعل بويع إدريس الأول سنة ١٧٢ هـ من قبل قبيلة أوروبة أولاً ثم بايعته القبائل الأخرى مثل زناتة ومكناسة وغياثة وغمارة وغيرها[4] .

ودشن إدريس قيام دولته بخطبة هامة من المفيد أن نثبت بعض نصوصها لتحليل ما تنطوي عليه من دلالات هامة . وهناك بعض ما قال :

« الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه وعاقبة السوء لمن عانده . **ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية . . أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية** . . . إعلموا عباد الله أن من أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان **وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** »[5] .

وتنم هذه الخطبة عن براعة سياسية ؟! إذ حرص إدريس على إرضاء كافة

---

(١) مجلة الوثائق : عدد ١ : ٣٧.
(٢) عبد اللطيف السعداني : ١١.
(٣) ابن أبي زرع : ١٩.
(٤) نفسه : ٢٠ .
(٥) مجلة الوثائق: ٤٠ ـ ٤٥.

القبائل على اختلاف مذاهبها. فقد استرضى أهل السنة حين دعى إلى « كتاب الله وسنة نبيه ». كما استرضى الخوارج حين لفت إلى « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ». وتعبر أقواله في « التوحيد » و« العدل » عن حرصه على كسب المعتزلة .

والملاحظ أن الخطبة خلو من أي ذكر للتشيع الأمر الذي يوضح أهمية الهدف السياسي بامتياز . وتشهد الخطبة عموماً قرينة على خطأ ما ذهب إليه أحد الدارسين[1] حين شكك في دور المعتزلة حيث نفى خلو الدعوة والدولة من تأثيرهم تماماً . وعلى العكس نرى أن معتزلة المغرب الأقصى كانوا عماد الدعوة في الطور المغربي وعصب الدولة إبان تأسيسها على الأقل .

وفي انضمام الخوارج إلى إدريس الأول قرينة على ضآلة الجانب الاعتقادي بالقياس إلى الجانب السياسي ؛ خاصة وأن الحركة الخارجية الصفرية قد تصدعت بالمغرب الأقصى بعد هيمنة زناتة عليها إبان ثورة ميسرة. وفي مؤازرة المالكية والأحناف إدريس الأول ما يعبر عن التقارب بين المذهب الزيدي ومذاهب أهل السنة . ألم يؤازر الإمامين مالك وابن حنيفة ثورات الزيدية في الشرق ؟

على كل حال ـ أدرك إدريس الأول ببصيرته السياسية النافذة خطورة إظهار تشيعه حتى لا يحدث فرقة في وقت كان فيه بحاجة ماسة إلى تعضيد كافة المذاهب والفرق . فلم ينص إلا على أنه « يحمل أمانة أهل البيت ». ولم يشر حتى إلى اعتبار نفسه « إماماً » على الأقل في السنوات الأولى من حكمه[2] . وهو نهج سياسي بارع حرص ابن ادريس الثاني على اتباعه حتى أواخر

(١) انظر : اسعد زغلول عبد الحميد: ٤٢٩ .
(٢) من الأدلة في هذا الصدد أن إدريس الأول بعد بناء مسجد تلمسان نقش على محرابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله » دون أن يذكر لقب « إمام ». انظر : عبد اللطيف السعداني : ٢٢ .

حكمه[1] . في مقابل ذلك ألح إدريس على « البعد الاجتماعي » حين تعهد « بالعدل في الرعية والقسم بالسوية » .

شرع إدريس الأول بعد بيعته في ترسيخ أركان دولته . وكان عليه أن يؤسس عاصمة جديدة وأن يستن نظم الدولة ورسومها وأن يجيش الجيوش التي تكفل لها البقاء والاستمرار من ناحية والتوسع من ناحية أخرى .

وبخصوص تأسيس فاس ؛ أثيرت مشكلة حول تاريخ بناتها وبالتالي حول مؤسسها . ولن نخوض في تناولها . إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة أو يضيف جديداً إلى ما هو متعارف عليه .

كانت الرواية الشائعة أن إدريس الثاني هو مؤسس مدينة فاس ؛ إذ شيد عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢ هـ تم عدوة القرويين في العام التالي[2] . لكن العلامة بروڤنسال جاء بنظرية جديدة فحواها أن إدريس الأول هو الذي بدأ تأسيس المدينة سنة ١٧٢ هـ في الموضع الذي يحوي عدوة الأندلسيين . أما إدريس الثاني فقد أسس عدوة القرويين سنة ١٩٣ هـ غربي مدينة أبيه على الضفة اليسرى من وادي فاس ، إذ استبعد بروفنسال أن يؤسس إدريس الثاني مدينتين متجاورتين في آن . وقد دعم نظريته ببراهين منطقية ونصوص تاريخية هامة فضلاً عن عثوره على عملة ضربت بالمدينة سنة ١٧٢ هـ تحمل اسم إدريس الأول[3] .

ونحن نقر بوجاهة هذه النظرية ونضيف إلى حجج صاحبها قرينتين

---

(١) نلاحظ أن العملة الإدريسية حتى أواخر عهد إدريس الثاني خلو من ألقاب الإمامة وشعارات الشيعة .

انظر : Eustache : Op. Cit. p.71. .

(٢) سبق وأن أعلن شارل أندريه جوليان أن إدريس الأول هو مؤسس فاس لكنه لم يجد الوقت لإتمام عرائسها نظراً لمشاغله فظلت قرية متواضعة .

انظر : تاريخ إفريقية الشمالية، الترجمة العربية، ص ٥٦، تونس ١٩٨٥ .

(٣) راجع : محمود إسماعيل : مقالات في الفكر والتاريخ، ص ٥٧، الدار البيضاء ١٩٧٩ .

جديدتين هامتين ، الأولى العرف الذي جرى عليه كافة مؤسسي الدول المستقلة في بلاد الغرب ببناء عاصمة جديدة عقب بيعته . حدث هذا بالنسبة لدولة بورغواطة وعاصمتها مدينة شاله . ودولة بني مدرار وعاصمتها سجلماسة ودولة بني رستم وعاصمتها تاهرت ودولة الأغالبة وعاصمتها العباسية . وثانيهما : حرص إدريس الأول على التحرر من سطوة أوروبة ورغبته في تأكيد سلطة المخزن . من أجل ذلك أسس مدينة فاس لتحل محل وليلي كحاضرة لدولته الجديدة . وإذ لم يقدر له الانتقال إلى فاس ، فيعزي إلى انشغاله بالفتوح وخاصة في تلمسان التي استقر بها ثلاثة أعوام .

على كل حال ـ يتم اختيار موضع فاس عن حصافة وحسن تقدير . فالمكان صالح للعمران حيث يجمع بين غزارة الماء ـ واد فاس[1] ـ واعتدال الهواء وتوافر مواد البناء من أحجار وأخشاب[2] . هذا فضلاً عن موقعها الاستراتيجي على الطريق الرابط بين الهول الأطلسية والمغرب الأوسط بالإضافة إلى أهميتها بالنسبة لتجارة السودان .

وبخصوص إقرار النظم المالية والإدارية ، اتبع إدريس أصول الشريعة فيما يتعلق بالجبايات . وتأثر بالنظم الإدارية القديمة ـ في تقسيم الدولة ـ إلى عمالات[3] . وبرغم استئثاره بالحل والعقد استعان بعدد من الوزراء معظهم من أوروبة من أمثال عبد المجيد مصعب وأخيه عمر وراشد بن مرشد[4] .

وهذا يعكس نفوذ أوروبة باعتبارها العصبية المؤسسة ؛ ذلك النفوذ الذي حاول إدريس التخلص من إساره عن طريق الاستعانة بقبائل البربر الأخرى وخاصة زناتة . وبرغم نجاح إدريس الأول ـ إلى حد ما ـ في هذه السياسة ظلت قبائل البربر وخصوصاً أوروبة تشكل حجر عثرة أمام فرض هيمنة

---

(١) ابن أبي زرع : ٣٣.
(٢) نفسه : ٣٥، ٣٦.
(٣) راجع إسعاده الشيخ : المجتمع المغربي : في عصر الولاه ـ رسالة ما جستير مخطوطة.
(٤) جوليان : ٥٨ .

« المخـزن » . على سائر ربوع الدولة . يفهم ذلـك من نـص أورده ابن حيان على لسان الأدارسة المتأخرين حيث قال : « فلما صار جدنا إدريس إلى البربر واستجار بهم ، أجاروه . ووضعـوا له من بلدهـم فـرص توسط لـه ما بينهم من الأحكام من غير أن يضبطهم ضبط السلطان » .

أما عن تجييش الجيوش فقد اعتمد إدريس على سـائر قبـائل البـربر في دولته . يقول ابن زرع « وأخذ إدريس جيشاً عظيماً من وجوه قبائل زناته وأوروبة وصنهاجة وهوارة وغيرهـم » .

وبفضـــل هـذا الجيش تمكن إدريس « من ضـــرب عصفـورين بحجـــر واحد » . كما يقال - إذ تخلص من تآمر القبائل بأن استثمر طاقاتها العسكرية في حروب خارجيـة كفلت له السيـادة عليها جميعـاً . هذا فضـلاً عما تـرتب على الفتوحات من موارد مالية وبشرية - وخاصة من مفراوة وبني يغرن - استعان بهـا في موازنة نفوذ أوروبة .

ونلاحظ أن توجهات إدريس الأول العسكرية انطوت لذلك على أهداف سياسية واقتصـادية واجتمـاعية وإن غلفهـا المؤرخون - القـدامى والمحدثـون - بطابع الجهاد الديني . ويخيل إلينا أن إدريس الأول هو الذي أضفى هذا الطابع الديني ليكسب توسعاته نوعان من المشـروعية . صحيـح أنها أسفـرت - ضمن مـا أسفرت - عن « أسلحـة » بعض العناصـر الوثنيـة والنصرانيـة واليهوديـة في الجنـوب : لكن معظم السكـان في كافـة الأقاليم التي فتحهـا كانت على دين الإسلام واعتنقت مذاهب خارجية واعتزالية وسنية .

لم يكن جزافاً أن يوجه إدريس جيوشه للاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية واقتصادية . ففي الجنوب توجهت إلى سهول تامستا الغنية بإنتاجهـا الزراعي والحيواني فضلاً عن أهميتها التجارية إذ ينطلق منها طريق تـارورانت نحـو ذهب السـودان . كمـــا تـوجهت إلى تلمســـان ذات الأهميـة التجـــاريـة

---

(١) المقتبس من أخبار أهل الأندلس : تحقيق شاعيتا. ص ٢٩٢، مدريد ١٩٧٩ .

(٢) القرطاسي : ٢٠ .

والاستراتجيية أيضاً ، فهي تقع على طريق التجارة بين المشرق والمغرب وهي الثغر الأول للدفاع عن دولة الأدارسة ضد أخطار الأغالبة في إفريقية .

ومهما كان الأمر ؛ قاد إدريس الأول جيوشه نحو الجنوب حيث فتح مناطق منذ ولادة ومديونة وفزازة وماسة وتادلا . يذكر ابن أبي زرع[1] أن سكانها أسلموا طوعاً أو كرهاً. وما يعنينا أنه تمكن من ضم أقاليم جديدة أخضعها لسلطة المخزن « بعد أن كانت « سيبة » . فضلاً عن انتزاع بعض أراض بورغواطة التي كانت قد أقامت دولتها في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري . ويخطىء المؤرخون[2] الذين ذهبوا إلى أن « إدريس فتح معاقلها وأسلم جميع أهلها على يديه » . وقد سبق أن فندنا هذا الزعم من ناحيتين : الأولى ؛ أن بورغواطة كانت على المذهب الخارجي الصفري[3] . والثانية أن حملة إدريس لم تنجح في ضم ديارها حيث استأسد البورغواطيون في الحفاظ على استقلالهم[4] .

توجه إدريس الأول بعد ذلك إلى منطقة تازا ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية أيضاً ، ففضلاً عما قيل عن مناهجها الفنية بالمذهب ، يعتبر ممرها بمثابة الطريق الجنوبي الوحيد إلى المغرب الأوسط والرابط كذلك بين الأراضي الواقعة على ضفتي المرتفعات الأطلسية . وإذا قدر لإدريس نشر الإسلام بين بعض العناصر النصرانية في المنطقة ؛ فالثابت أن سكانها من البربر كانوا مسلمين على مذاهب « المعتزلة والروافض والجبرية » ممن اعتبرهم البكري[5] أهل بدع وضلالة .

توجه إدريس الأول بعد ذلك لفتح تلمسان . ولم تواجه جيوشه لأياً في ضمها نظراً لأن الكثيرين من سكانها كانوا على المذهب الزيدي من ناحية ولأن

---

(١) القرطاسي : ٢١ .

(٢) نفسه : ٢٠ .

(٣) راجع : محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٣ وما بعدها.

(٤) نفسه : ٣٢.

(٥) المغرب : ٦٥.

قبائل مفراوة وبني يغرن الزناتية رحبت بزناتة المغرب الأقصى ـ التي اندرجت في جيش إدريس ـ من ناحية أخرى . تذكر المصادر[1] أن إدريس حين نزل خارج المدينة أتاه أميرها محمد بن خزر المغراوي وبايعه « فدخل إدريس تلمسان واستقامت بها إمارة المغرب » .

وهذا النص بالغ الأهمية في الدلالة على ما أضافه إدريس إلى ذولته من إقليم غني بموارده المادية والبشرية ، تلك التي استعان بها لدعم دولته الفتية . هذا فضلاً عن أهميتها بالنسبة « للمشروع » الإدريسي التوسعي شرقاً نحو إفريقية ومن بعدها مصر . وهذا يفسر لماذا ظل إدريس مقيماً بها قرابة أعوام ثلاثة .

ويبدو أن استيلاء إدريس الأول على تلمسان « باب إفريقية » أدخل الهلع في قلوب العباسيين وعمالهم في إفريقية . ونظراً لاضطراب أمور إفريقية آنذاك وافتقار العباسيين ـ المشغولين آنذاك بالمشكلات المشرقية ـ إلى أسطول في البحر المتوسط يمكنهم من نقل الجيوش للقضاء على دولة إدريس ، لجأ الخليفة هرون الرشيد إلى الحيلة في التخلص منه بالتواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب عامله على بلاد الزاب .

ودون خوض في التفصيلات المعروفة في هذا الصدد ؛ استشار الرشيد وزيره يحيى البرمكي ؛ فأشار عليه بإنفاذ سليمان بن جرير المعروف بالشماخ إلى المغرب لاغتيال إدريس[2] . وقد نجحت المؤامرة وتم اغتياله سنة ١٧٧ هـ .

لكن الدولة التي وطد إدريس الأول دعائمها صمدت في وجه التآمر العباسي الأغلبي ؛ إذ ساسها المولى راشد حتى ولدت جارية لإدريس ابنه إدريس الثاني . وقد تعهده راشد بالوصاية حتى اغتياله . وبالمثل صمدت دولة

(١) ابن أبي زرع : ٢٠ من السنوسي : ٤٦ .
(٢) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٢١٤، تونس ١٩٦٩ .

الأدارسة بعد راشد ، إذ خلفه خالد بن إلياس العبدي في الوصاية على إدريس الثاني حتى شب عن الطوق وتولى حكم دولته .

الخلاصة : أن تأسيس دولة بني إدريس لم يكن حدثاً عفـوياً ، بـل كان تتويجاً لنضال الشيعة الزيدية في الشرق ودعوتهم التي احتوت دعوة المعتزلة في المغـرب . وإذا كانت الإديـولوجيـة الزيـدية ـ الاعتـزالية قـد اضطلعت بـأمور الدعوة ؛ فإن قبيلة أوروبة شكلت العصبية التي اتخذت طموحاتها مع أهـداف الدعوة في إقامة دولة الأدارسة .

أما عن تطور دولـة الأدارسة منـذ عهد إدريس الثـاني وحتى نهايتهـا سنة ٣٧٥ هـ، فهو ما سنعرض له بالدراسة المفصلة في المبحث التالي .

البَابُ الثَّانِي

سِيَاسَة الأَدَارِسَة الدَّاخِلِيَّة



تكتسي دراسة هذا الموضوع أهمية خاصة لعاملين أساسيين . أولهما : أنه رغم ما كتب عن الأدارسة فإن دراسة أوضاع دولتهم الداخلية اتسمت بالسطحية والسرد الوصفي في أغلب الأحيان . وهذا راجع إلى ندرة المعلومات بالحوليات التي عرضت للموضوع باقتضاب معالجة سيرة كل حاكم على حدة ، مترجمة لحياته وأخلاقه وأهم أحداث عهده وما شابه . ومعظمها نسج على غرار ما كتبه ابن أبي زرع ؛ وهو مؤرخ منقبي متعاطف مع الأدارسة إلى أبعد الحدود . إذ يتضمن في ذكر فضائلهم ومناقبهم ويغض الطرف عن مثالبهم .

وقد أمكن تدارك هذا العيب بالرجوع إلى كتب الجغرافيين والرحالة ، كذا كتب الملل والنحل التي تحوي معلومات ضافية عن العصبيات والإثنيات فضلاً عن المذاهب والطوائف .

وثانيهما : خطأ التفسيرات المتعلقة بسياسات الأدارسة الداخلية ، حيث تبرز الرؤى العصبية والتيولوجية والإقليمية والأخلاقية ، فضلاً عن تضخيم دور المؤثرات الخارجية في صياغة الأحداث والوقائع الداخلية . ويكمن هذا الخطأ في النظر إلى المظاهر باعتبارها عللاً وأسباباً . ونحن نرى أن هذه المظاهر تفسر في إطار الواقع الاقتصادي ، الاجتماعي الذي أفرزها ؛ مع التسليم بفعاليتها في عصور التدهور والانحطاط حيث تختلط الأسباب بالظاهرات . وقد فطن العلامة ابن خلدون إلى ذلك حين ربط حركة التاريخ بمفهوم القوة المادية التي تتحكم في السيرورة التاريخية . فالتيولوجية عنده مجرد وسيلة لتوحيد فصائل العصبية .

والعصبية عند ابن خلدون ليست عرقية بقدر ما هي طاقة دينامية ذات فعاليات محركة مستمدة من القوة الاقتصادية والبشرية . هذا ما أثبتناه في دراسة سابقة تغني عن مزيد من اللجاج[١] .

وبتطبيق هذه الرؤية على مجريات التاريخ السياسي الداخلي لدولة الأدارسة ، نجد أن قوة الدولة تتمثل في التوافق بين الإديولوجية المذهبية وطموحات العصبية المؤسسة . فطالما حدث الانسجام والتوافق أمنت الدولة من أخطار العصبيات والطوائف . وحين يقع التعارض والتناقض تتفاقم هذه الأخطار وتصبح الدولة عاجزة عن مواجهتها .

وعلى ذلك يمكن تقسيم تاريخ الأدارسة إلى طورين متميزين : طور القوة ، ويمثل عهود إدريس الأول والثاني ومحمد بن إدريس . وإبانة تمثلت قوة الدولة في جهاز سياسي وإداري وجبائي محكم وجيش قوى وعاصمة مركزية تسيطر على كافة أقاليم الدولة ، وتوجه طاقاتها نحو استغلال المقدرات الاقتصادية ، كما توجه الإديولوجية المذهبية لتكريس الوئام والوفاق بين كافة الإثنيات والطوائف . وحتى إذا ما بدأت حركات الانتزاء ضد « المخزن » أمكن وأدها في مهدها واستثمار طاقاتها العسكرية خارج الحدود . وحسبنا دليلاً على قوة الدولة إبان هذه الحقبة أن الأدارسة أنفسهم كانوا عرباً وسط بحر من البربر[٢] ، كما كانوا شيعة زيدية يحكمون حشداً من عناصر شتى ذات مذاهب مغايرة .

كانت قوة الدولة الإدريسية إبان هذه الحقبة ترجمة للمقدرات الاقتصادية والبشرية الهائلة التي انطوت عليها . لقد حقق الأدارسة لأول مرة في تاريخ العرب الأقصى دولة « المخزن » بما تعنيه من وجود حاكم قوى يستشير مجلساً من الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل ويأتمر بأمره جهاز تنفيذ إدراي ومالي وقضائي

---

(١) راجع : محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، جـ ١ ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .

(٢) هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب ، ص ٣٨ ، تونس ١٩٨٠ .

وعسكري[1] . وبرغم بساطة النظم الإدريسية في عهد إدريس الأول إلا أنها ما لبثت أن تطورت في عهد إدريس الثاني مفيدة في ذلك من التأثيرات الشرقية والأندلسية[2] ؛ بحيث كفلت إقرار هيبة الدولة على سائر عناصرها وقبائلها .

أما الطور الثاني ، فيشمل عهود خلفاء محمد بن إدريس حتى سقوط الدولة سنة ٣٧٥ هـ. ومن سمات هذه الحقبة ضعف سلطة « المخزن » واتساع رقعة « السيبة » أي الأقاليم التي لا تخضع لسلطة الدولة . كذا اضمحلال النظم والرسوم وتشرذم الجيوش . وحسبنا أنها شهدت مزيداً من الصراع بين أفراد الأسرة الإدريسية بعد تقسيم الدولة إلى كيانات إقطاعية بين الإخوة والأبناء . ومحاولة كل أمير أن يوسع « مخزنه » على حساب أمراء فاس من ناحية وعلى حساب جيرانه من ناحية أخرى .

ونجم عن ذلك سفور السخائم الإثنية والمذاهب الطائفية لتتفجر الخلافات وتندلع الصراعات ليس فقط ضد السلطة المركزية بل ضد الكيانات الإقطاعية الإدريسية أيضاً . وأدى ذلك إلى تكوين كيانات عنصرية وطائفية وتجمعات محلية وإقليمية ، الأمر الذي فت في قوة « المخزن » وفتح الباب على مصراعيه للأطماع الأجنبية الفاطمية والأندلسية .

ونحن نردّ ـ وفقاً لمنهجنا ورؤيتنا ـ كل هذه الظاهرات إلى إجهاض الصحوة البورجوازية التي أفرزت طور القوة وعودة الإقطاعية بما تعنيه من تشرذم وتجزئة وبروز للنعرات الإثنية والطائفية .

وحسبنا أن تاريخ الأدارسة خلال الحقبتين كان مرتبطاً بتطورات عامة في العالم الإسلامي كله تتلخص في مقولة الصراع بين البورجوازية والإقطاع[3] .

فلنحاول رصد الأوضاع الداخلية في الدولة الإدريسية خلال طوري القوة والإنهيار.

---

(١) محمد حباني : خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة ـ رسالة ماجستير، ص ٢٩٢ .

(٢) نفسه : ٢٩٣ .

(٣) راجع : محمود إسماعيل مقالات في الفكر والتاريخ ، ص ٥٨ ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .



الفصل الأوّل

طوْر القوّة (١٧٢ - ٣٢١هـ)

سنعالج تاريخ هذه الحقبة وفق رؤية سوسيو - اقتصادية تفسر الأحداث والوقائع كمنظومة متسقة مع معطيات صحوة بورجوازية سادت المغرب الأقصى وبلغت العالم الإسلامي برمته حتى العقد الثالث من القرن الثامن الهجري.

ومن أبرز ملامح هذه الصحوة في دولة الأدارسة، وضع حد لسياسة الابتزاز الاقتصادي الذي تعرضت له البلاد على يد عمال الخلافة الشرقية، والتي أسفرت عن ردود فعل ثورية خارجية أسهمت بدورها - نتيجة الحروب - في خراب المغرب الأقصى اقتصادياً؛ خاصة في الأقاليم التي لم تندرج في دولة المستقلة بنكور وشالة وسجاسة. تلك الأقاليم التي شهدت « فراغاً سياسياً » جرى ملؤه بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ.

لقد كان قيام دولة الأدارسة - في حد ذاته - تعبيراً عن معطيات الصحوة البورجوازية في المغرب الكبير الذي ترجم هذه الصحوة إلى تأسيس دول مستقلة عن الخلافة في الشرق[١].

وليس أدل على « تبرجز » الدولة الإدريسية اقتصادياً من ذيوع الملكية الفردية خصوصاً في المدن وأرباضها وضواحيها. ولدينا في هذا الصدد نصوص جد هامة. منها إشارة ابن أبي زرع[٢] إلى شراء فاطمة الفهرية موضع جامع

(١) نفسه : ٥٩.

(٢) القرطاس : ٥٤.

القرويين من بعض الخواص . ومنها شراء إدريس الثاني موضع ربض القرويين من بعض قبائل البربر الضاربة في الإقليم . كذا إعلان إدريس الثاني أن « من أصلح أرضاً وغرسها فهي له »[١] . كما لدينا من القرائن ما يثبت انسحاب ظاهرة الملكية الغربية خارج فاس ؛ وخاصة في الأراضي المجاورة لوديان الأنهار كحوض سبو على سبيل المثال[٢] .

وإذا كانت الملكية الجماعية تسود مضارب القبائل[٣] ، إلا أنها لم تكن بمنأى عن نفوذ « المخزن » الذي سمح بتواجدها نظير ما يدفعه أصحابها من خراج للدولة[٤] . وحسبنا أن المخزن كان مناطاً بأمور السقاية والصيانة وغيرها من المرافق[٥] .

ومعلوم أن ذيوع الملكية الفردية سمة هامة من سمات نمط الإنتاج البورجوازي ؛ وهو أمر أكده أحد الباحثين الثقاة فيما يتعلق بدولة الأدارسة .

كما أن شيوع ظاهرة « المؤاجرة »[٦] قرينة أخرى على سيادة هذا النمط : الذي دلل عليه كذلك تعاظم الإنتاج الزراعي لا للاستهلاك فقط بل للسوق أيضاً . ومن مظاهر هذا التعاظم ـ الذي أفاد من خبرات العناصر المشرقية والأندلسية الوافدة ـ رخص الأسعار[٧] التي أمدنا ابن أبي زرع بمعلومات ضافية عنها سنثبتها في موضعها. كما أمدنا بمعلومات مماثلة عن زراعة محاصيل خاصة للتصدير كالقطن والنيلج الذي كانت مزارعها تسقى بالري الصناعي . ومعلوم

---

(١) نفسه : ٣٩ .
(٢) محمد حباني : المرجع السابق: ٢٩٩ .
(٣) ابن حوقل : ١٠٠ .
(٤) نفسه : ٨٨، ٩٠ .
(٥) محمد حباني : ٢٩٨ .
(٦) انظر : الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ، ص ١٧٣ ، تونس ١٩٧٨ .
(٧) هويكنز : ٧٧ .
(٨) البكري : ١٦٠ .

دور الفرس في هذا الصدد في سائر دول الغرب الإسلامي[١] .

وبالمثل شهد قطاع الرعي تطوراً هاماً . وحسبنا أن مراعي الغرب الأقصى التي تهددتها أخطار سياسة عمال بني أمية حيث كانوا يبقرون بطون الأغنام بحثاً عن الجزة الذهبية ؛ أصبحت قادرة على الانتاج المكثف . ليس أدل على ذلك مما روي عن أسواق أغمات التي كان يذبح بها مائة ثور وألف شاة كل أسبوع[٢] . ناهيك عن وفرة الألبان ومنتجاتها التي اشتهرت بها سائر أقاليم المغرب الأقصى[٣] .

ونجم عن الازدهار الزراعي والرعوي ظاهرة اجتماعية جد هامة وهي استقرار الكثير من القبائل مودعة حياة الظعن والانتجاع[٤] بعد أن عول الأدارسة الأوائل على اتباع سياسات جبائية عادلة حسب الشريعة[٥] .

وازدهرت الصناعة كذلك في كل الأدارسة الأوائل بفضل استغلال المناجم التي احتكر المخزن بعضها ـ كمناجم الفضة ـ وأوكل معظمها ـ كمناجم النحاس ـ إلى الأفراد والجماعات لاستغلالها مقابل ركاز يقدر بخمس الإنتاج حسب الشريعة أيضاً . وأدت هجرة الكثيرين من حرفيي الشرق والأندلس إلى دولة الأدارسة إلى تحسين وسائل الإنتاج[٦] .

وهذا يفسر وفرة وجودة المصنوعات سواء للاستهلاك أو للتصدير . ومن أهم السلع المصدرة ـ وخاصة إلى بلاد السودان ـ الجلود التي اشتهرت بها فاس وأغمات والأدوات الخشبية التي أنتجتها بلاد الريف[٧] . وكانت الأندلس

(١) ابن حوقل : ٩٦.
(٢) البكري : ١٠٠.
(٣) نفسه : ١٥٣.
(٤) عبد الكريم بيصعين: ٥٩.
(٥) محمد حباني: ٣٠٨.
(٦) عبد الكريم بيصعين: ٥٩.
(٧) البكري: ٩٠.

تستورد الأخشاب من المغرب الأقصى دون تصنيع لاستخدامها في بناء السفن[١] . وليس أدل على ازدهار الصناعات والحرف من ذيوع ظاهرة التخصص وظهور « الأصناف » خاصة في المدن الهامة كفاس[٢] .

بديهي أن تروج التجارة الداخلية والخارجية كنتيجة للازدهار الزراعي والرعوي والصناعي . فضلاً عن إقرار الأمن وصيانة الطرق[٣]، الأمر الذي شجع حركة التجارة الداخلية في الأسواق الموسمية والدائمة وحقق وحدة اقتصادية متكاملة وانصهاراً اجتماعياً متجانساً ؛ فاختفت النزعات الإقليمية والإثنية والمذهبية . كما راجت التجارة الخارجية خاصة مع بلاد السودان حيث الذهب والرقيق[٤] : الأمر الذي قوى من قبضة المخزن نتيجة الضرائب المكوس . كما ازدهر النشاط الحضري والعمراني والديموغرافي : الأمر الذي أسهم في قوة الدولة الإدريسية إبان تلك الحقبة .

فلنحاول رصد وتحليل أحداث طور القوة في تاريخ الأدارسة الداخلي في ضوء هذه الصحوة البورجوازية .

بديهي أن تسفر الصحوة البورجوازية سياسياً عن مزيد من سطوة وهيبة الدولة المركزية . وبرغم ضآلة المعلومات: نستطيع أن نرجح تطور نظم « المخزن » في عهد إدريس الثاني بعد أن وضع إدريس الأول أسسها منذ مستهل عهده . وقد أشرنا سلفاً إلى إقرار وترسيخ نظم البلاط ورسوم الوزارة والإدارة ونظم القضاء والجباية والجيش[٥] . كما أشرنا إلى هيبة العاصمة فاس باعتبارها مقر الحكم ومناط السلطان . . ومنها كان الأدارسة ينفذون ولاتهم

---

(١) عبد الكريم بيصعين: ٥٧ .
(٢) الجنحاني : المغرب الإسلامي : ٣٠٣ .
(٣) عن الطرق الداخلية ؛ راجع : البكري: ٨٨ ومابعدها.
(٤) لومبار: الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي. فصله من كتاب: بحوث في التاريخ الاقتصادي ، ص ٥١ وما بعدها، القاهرة ١٩٦١ .
(٥) هوبكنز : ٤٨، ٦٩ .

وعمالهم إلى سائر الأقاليم ينفذون مشيئة الحكام ويضبطون الثغور ويحمون المرور والتخوم . ومن القرائن الدالة على هيبة « المخزن »؛ سريان عملة الأدارسة في سائر ربوع دولتهم[1] ، وحلول المقابضة في التعامل بدلاً من المقايضة .

لذلك لم يقع ما من شأنه تعكير صفو السياسة العامة للمخزن . فبرغم اعتماده على قبيلة أروبة كعصبية مؤسسة ؛ لم يأل جهداً في إيلاف كافة القبائل والإثنيات . وحسبنا إجماع سائر قبائل البربر كزواغة وزوارة ولماية وسدراته وزناتة وغياثة ونغزة ومكناسة وغمارة على مبايعة إدريس الأول ومن بعده إدريس الثاني « للقيام بأمرهم وصلاتهم وغزوهم وأحكامهم »[2] .

وقد شجع هذا الاستقرار السياسي على وفود عناصر جديدة من بربر وعرب الأندلس وعرب وفرس إفريقية والمشرق للإقامة في كنف الدولة الإدريسية . وبرغم الاختلافات المذهبية بين هذه العناصر لم يحدث ما من شأنه أن يمثل خروجاً على السلطة ، خاصة وأن الأدارسة الأوائل طرحوا ظهرياً التعصب لمذهبهم وسمحوا بتواجد المذاهب الأخرى من اعتزال وخارجية وسنية .

ومن سمات قوة الدولة في تلك الحقبة استمرار تطورها بعد اغتيال إدريس الأول . إذ آل الحكم إلى المولى راشد دونما معارضة . وظل راشد وصياً على إدريس الثاني حتى اغتيال راشد أيضاً دونما معارضة أيضاً . ثم آلت الوصاية على إدريس الثاني إلى عربي يدعى ابن خالد بن إلياس العبدي حتى شب إدريس الثاني عن الطوق وباشر الحكم بنفسه دون معارضة كذلك . بل إن سائر القبائل اجمعت على بيعته سنة ١٨٨ هـ ـ كما أوضحنا سلفاً ـ « فقويت جنوده وأشياعه وكثرة جيوشه وأتباعه »[3] .

---

(١) راجع : Eustache : Op. Cit. p.p. 25, 27 .

(٢) ابن أبي زرع : ٢٧ .

(٣) نفسه : ٢٨ .

واصل إدريس الثاني سياسة أبيه في تقوية قبضة « المخزن » في الداخل والتوسع في الخارج ؛ مؤزراً بقوة البربر أولاً ثم العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس بعد ذلك . ونحن لا نقر القائلين بترحيب إدريس الثاني بهذه العناصر « لغربته في بلاد البربر » بقدر ما نؤكد على إفادته من هذه العناصر المتحفرة من تطوير جهاز الحكم فضلاً عن تكريس خبراتها في مجال الاقتصاد والعمران .

وبرغم اعتماد إدريس الثاني على هؤلاء العرب والوافدين[١] . وبرغم ما سببه ذلك من إثارة البربر : استطاع أن يوازن بين قبائل البربر حين استعمال زناتة ضد أوربة بعد أن تمكن من رأب الصدع داخل القبائل الزناتية نفسها[٢] . كما فتح الباب على مصراعيه لكافة العناصر الأخرى من فرس وعرب ليأمن غائلون زناتة إذا ما أزمعت العصيان . وبالمثل أفاد من جهود اليهود والنصارى في المجال المالي والعمراني[٣] .

هكذا نجح إدريس الثاني بفضل سياسة « الموازنة » أن يوجه جهود كافة القوى لتقوية هيبة المخزن . وقد تجلى ذلك فيما وصلت إليه مدينة فاس من بهاء وازدهار حتى غدت قبلة للمشارقة والمغاربة والأندلسيين[٤] .

على أن اهتمام إدريس الثاني بحاضرته الجديدة بعد الانتقال إليها أثار سخط أوربة التي راعها انتقال العاصمة من مدينتها وليلى . لم يكن هذا الانتقال لأن « وليلى ضاقت بأهلها » كما ذكر ابن الخطيب[٥] . بل كان نتيجة حرصه على التحرر من نفوذ أوروبة وذلك بمغادرة مضاربها. وبالمثل نرى أن سخط أوروبة لم يرجع إلى أسباب عنصرية كامنة في استعانة إدريس الثاني بالعرب بقدر ما يرجع إلى تخلي.إدريس الثاني ـ لأسباب سياسية ـ عن سياسة العدل

(١) نفسه : ٢٩ .
(٢) نفسه : ٣١ .
(٣) نفسه : ٣٧ .
(٤) نفسه : ٣٩ .
(٥) أعمال الأعلام: ٣ : ١٩٨ .

والمساواة التي حرص والده على إقرارها . يفهم ذلك من نـصّ لابن أبي زرع[1] يـرد سخط أوروبة « لأن إدريس أجـزل صلات العـرب وقربهم ورفـع منـازلهم وجعلهم بطانة دون البربر » . وفي ذلك دليل على أهمية الدوافع الاقتصادية وإن اتخذت لبوساً عنصرياً .

ولما كانت أوروبة عاجـزة عن مناجـزة إدريس علانيـة ؛ فقد عبـرت عن سخطها خيفـة وخفيـة وذلك بتدبيـر المؤامرات والمكائد . وتمثـل كيدهـا في محاولة الحؤول دون عمـران فاس إذ عـولت على « هدم مـا كان يبنى بـالنهار وحمـل ما حـوله من خيـام العرب »[1] وهـذا يفسر حـرص إدريس على البـدء بتشيـيد سور المدينة ليتجنب مكائد أوروبة في تعويق البناء .

من أجل ذلك أيضاً درج إدريس الثاني على اتباع « سياسة الموازنة » التي أجادها؛ إذ استغل العداء بين منهاجة ولوامة ومعمـورة وبين[3] أوروبة واعتمـد عليهم في وضع حد لمكائدها حتى تمكن من إتمام عمـران فاس . وليس أدل على خشيـة إدريس من البربـر عمومـاً من إقامتـه هـو وجهـازه الإداري بعـدوة الأندلسيـين . بينما أوطن مـواليه وحشمـه في عدوة القـرويـين « لموازنـة » قوة البربر الساكنين بها[4] .

وبـرغم هذه الإجـراءات لم تكـف أوروبة عن التـآمـر : حتى إن إدريس الثاني ندد بها واستجاش سكان فاس ضدها في خطبة بعد اتمام العمـران . إذ دعى الله أن « يغمد عن سكانها سيفـ الفتنة والشقاق والنفاق »[5] .

واصلت أوروبة مكائدها ؛ حتى غـدا الصراع بينهـا وبين إدريس الثاني لا مندوحة عنه . والمصادر تلوذ بالصمت عن مجريات ووقائـع هذا الصـراع ،

---

(١) القرطاسي : ٣٠ .

(٢) نفسه : ٤٦ .

(٣) نفسه : ٤٣ .

(٤) نفسه : ٤٦ .

(٥) نفسه: ٤٩ .

ونرى أن جذوره تمتد إلى عهد إدريس الأول . فبرغم دورها في إقامة الدولة كعصبية مؤسسة لم تتحقق طموحاتها في مكانة متفوقة . وبرغم اختيار إدريس الأول وزراءه من أوربة ؛ حاول فل شوكتها بالاعتماد على زناتة . ونفس السياسة عول عليها إدريس الثاني ـ كما ذكرنا سلفاً ـ مما زادها تبرماً وسخطاً . خاصة بعد أن أسفر إدريس عن تشيعه الزيدي واضعاً بذلك حداً للتحالف الزيدي ـ الإعتزالي .

وإذ فشلت أوروبة في الحؤول دون عمران فاس وانتقال إدريس الثاني إليها مستعيناً بالعرب وقبائل البربر المعادية لأوروبة ، لم تجد مناصاً من التآمر مع الأغالبة ضده . خاصة وأن الأخيرين ذوي باع طويل في تدبير المكائد ضد الأدارسة . وساعد على ذلك ما جرى في دولة الأغالب على عهد زيادة الله بن الأغلب من جعل الإعتزال المذهب الرسمي في إفريقية[1] .

لم يجد إدريس الثاني بدأ من وضع حد لمؤامرات أوربة ، إذ باغتها باغتيال زعيمها إسحق بن عبد الحميد ؛ فاضطرت للرضوخ صاغرة .

على أن تآمر أوربة شجع قبيلة مطفرة الصفرية على اتباع ذات الأسلوب . فبرغم استحالة إدريس الثاني زعيمها بهلول بن عبد الواحد بأن اصطفاه وزيراً ، إلا أنها قلبت له ظهر المجن . ويرجع ذلك كذلك إلى سياسة المحاباة التي اتبعها إدريس الثاني بتقريب العناصر العربية والتخلي عن سياسة العدل والمساواة إلى سياسة « التوازن » والحيل السياسية . فضلاً عن إظهار تشيعه وإقدامه على التنكيل بالخوارج الصفرية .

لذلك عقدت مطفرة العزم على الثورة متواطئة في ذلك مع بني مدرار ، لكن انشغال المدراريين بمشكلاتهم الداخلية[2] ، جعلها تولي وجهها شطر الأغالبة . ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن المراسلات المتبادلة بين الطرفين

---

(١) راجع : الفصل الخاص بالعلاقات الإدريسية ـ الأغلبية .

(٢) راجع : محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١٥٢ وما بعدها .

في هذا الصدد . لذلك أثخن في مطفرة قتلاً ونهباً ، فاضطر زعيمها بهلول بن عبد الواحد للهرب إلى إفريقية .

إن اتخاذ حركات المعارضة ضد إدريس الثاني صورة التآمر والتخابر مع قوى خارجية دليل دافع على ضعفها وهزالها . وينم نجاح إدريس الثاني في القضاء على المتآمرين والتنكيل بقبائلهم عن قوة الدولة وقدرتها على مواجهة حركات الانتزاء ذات الطابع الإثني والمذهبي .

على أن ظهور هذه الأخطار دفع إدريس الثاني إلى المزيد من تعميق سياسة « التوازن القبلي ». وذلك بإثارة السخائم العصبية بين البربر والإفادة منها في تأكيد هيبة المخزن . في هذا الإطار يمكن تفسير ما أقدم عليه من « زواج سياسي » حين اختار زوجة من قبيلة نفزة أنجب منها ابنه محمد[1] . ونجحت هذه السياسة في وضع حد للمؤامرات داخل دولة الأدارسة حتى وفاة إدريس الثاني سنة ٢١٣ هـ.

ويبدو أن العناصر المعارضة من البربر انتهزت فرصة وفاة إدريس الثاني وعادت للسفور . لذلك عول محمد بن إدريس على اتباع سياسة جديدة تضمن له وضع حد للقوئ المناوئة من البربر والعرب على السواء . وتكمن هذه السياسة في إسناده حكم الولايات إلى إخوته . وتذكر المصادر[2] أن جدته كنزه هي التي أشارت عليه بذلك. وأياً ما كان الأمر فقد أخطأ الدارسون الذين رأوا في هذه السياسة « تقسيماً » للدولة الإدريسية : لأن ما جرى لا يتعدى محاولة إقرار نظام لا مركزي بعد أن أثبتت المركزية في عهدي إدريس الأول والثاني استحالة السيطرة على أقاليم تسودها البنى القبلية . لقد استهدفت السياسة الجديدة على حد قول باحث ثقة[3] « تقوية الأسرة الإدريسية بأن تكون الولايات والقيادات

(١) ابن أبي زرع : ٥١.
(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ١٣١، القاهرة ١٩٦٣ ، ابن أبي زرع : ٥١، ابن خلدون : ٤ : ٤ .
(٣) انظر : سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٤٤٤ .

العسكرية بين أيدي أفرادها » وهو أمر كفل بتحقيق غايتين ؛ الأولى : وضع حد لصراع العصبيات حول المناصب القيادية في الدولة الإدريسية . والثانية إحكام الهيمنة على مضارب القبائل بعد تطاول بعضها وانتزائها على المخزن .

لذلك جرى تعيين إخوة محمد بن إدريس على الولايات على النحو التالي : تولى القاسم بن إدريس طنجة وسبتة وحجر النسر وتطاون وبلاد معموره وما وإلى ذلك من القبائل . وتولى داود بن إدريس بلاد هواره وتول ومكناسة وجبال غياثة وتازا . أما عيسى بن إدريس فقد نيط بولاية شالة وسلا وأزمور وتامسنا وما والى ذلك من القبائل . وتولى يحيى بن إدريس مدينة البصرة وأصيلاً والعرائش إلى بلاد ورغه . أما عمر بن إدريس فقد ولي على تيجساس وتدغة وبلاد صنهاجة وغماره وما والاها . وتولى أحمد بن إدريس مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادله . أما عبد الله بن إدريس فقد نيط بولاية أغمات ونفيس وبلاد المصامدة والسوس . وأخيراً تولى حمزة بن إدريس تلمسان وأعمالها . وأقام محمد بن إدريس في فاس[1] بعد أن كفاه إخوته مئونة إدارة أقاليم الدولة باسمه .

لم تكن تلك السياسة الجديدة سوى تنظيم إداري للدولة الإدريسية بعد أن اتسعت نتيجة فتوحات إدريس الثاني لتضم أقاليم جديدة كبلاد تامنا التي انتزعت من بورغواطة وبلاد تلمسان التي انتزعت من آل سليمان . وهذا يعني أن هذه الولايات جميعاً رغم تمتع ولاتها بصلاحيات إدارية وعسكرية ؛ كانت تتبع الحكم المركزي بفاس . وقد كفل هذا التنظيم الإداري الجديد هيمنة فاس على مضارب القبائل ومد نفوذ المخزن إلى سائر البوادي . وهذا ما يعنيه نفي ابن أبي زرع الذي يردف المدن والأقاليم التي تولاها كل والٍ من الأسرة الإدريسية بعبارة « وما والاها من القبائل » .

وبالفعل استقامت الأمور في عهد محمد بن إدريس ؛ فلم يحدث ما من شأنه تكدير صفوها من جانب قبائل البربر ، في ذات الوقت الذي كفل فيه

---

(١) ابن أبي زرع : ٥١ .

التنظيم الجديد ولاء أفراد الأسرة الإدريسية لأخيهم الأكبر بفاس محمد بن إدريس . وقد فطن ابن أبي زرع[1] إلى مزايا الحكم الجديد بقوله : « فأقاموا على بلاد المغرب وضبطوا ثغورهم وحكموا بلادهم وأمنوا سبلهم » .

وبرغم نجاح هذه السياسة في ضبط العصبيات المختلفة داخل الدولة والحيلولة دون تمردها وتطاولها على المخزن ، إلا أنها فجرت خطراً جديداً هو الصراع بين أفراد الأسرة الإدريسية . وإذا نجح محمد بن إدريس في وأد هذا الخطر طوال عهده ؛ فإنه ما لبث أن استشرى في عهود خلفائه ليسهم ـ ضمن أخطار أخرى ـ في انهيار دولة الأدارسة كما سنلاحظ في المبحث التالي .

بدأت ظاهرة الصراع بين آل إدريس بخروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بفاس معلناً استقلاله بولايته[2] . ولم يجد محمد بن إدريس مناصاً من تكليف أخيه القاسم بطنجة ليكفيه مؤنة قتاله . فلما رفض أوكل المهمة لأخيه عمر صاحب تيجساس وبلاد غماره . وتمكن الأخير استناداً إلى عسكره من غماره وأوربة وصنهاجة فضلاً عن جيش من زناتة أنفذه محمد بن إدريس من فاس ؛ من قمع الانتزاء . وكافأه أخوه محمد على ذلك بأن ضم لولايته ولاية أخيه الغنية بمقدراتها الاقتصادية الزراعية والتجارية[3] .

وبديهي أن يشرع محمد بن إدريس في تأديب أخيه القاسم الذي رفض الانصياع لأمره في قمع التمرد . وأسند المهمة كذلك لأخيه عمر الذي تمكن من هزيمته وضم ولايته فتعاظم نفوذه .

هكذا عبرت هذه الحركة عن حقيقتين هامتين : الأولى ما ترتب على اللامركزية من استشراء داء الصراع داخل الأسرة الإدريسية . والثانية قوة الدولة على عهد الأمير محمد بن إدريس بحيث استطاع عن طريق القوة والسياسة في أن يئد خطر ظاهرة الصراع الأسري .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن أبي زرع : ٥٣ .

(٣) ابن الآبار: ١ : ١٣٢ .

دليلنا على ذلك استمرار هيمنة فاس على سائر ربوع دولة الأدارسة على عهد علي بن محمد بن إدريس الذي خلف أباه بعد موته سنة ٢٢١ هـ[١] يفهم ذلك من قول ابن أبي زرع أنه « قمع الأعداء وضبط البلاد والثغور »[٢] .

ويفهم من هذا النص كذلك أن عوامل الضعف والانهيار بدأت تطل برأسها سواء في تفاقم ظاهرة الصراع الأسري أو في ظهور الانتزاعات العصبية والطائفية ومؤامرات « الأولياء والحاشية وصنائع الدولة »[٣] .

إذ بعد وفاة علي بن محمد خلفه أخوه يحيى الذي أخل بسياسة التوازن بين العصبيات حين اعتمد على العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس[٤] ؛ مثيراً بذلك سخط البربر . وانتهز حكام الولايات الفرصة للاستقلال بأقاليمهم والصراع بين بعضهم البعض في حروب ذات طابع إقطاعي . وفي ذلك يقول ابن حيان[٥] « فاختلفوا وتقاطعوا وتفرقوا أوزاعاً » وزاد الطين بلة استشراء حركات الانتزاع الداخلية الإثنية والطائفية الأمر الذي عرض دولة الأدارسة لأطماع القوى الخارجية[٦] .

لقد انتكست الصحوة البورجوازية التي أفرزت طور القوة في تاريخ الأدارسة وعادت الإقطاعية لتعمل عملها في صياغة طور الضعف والانهيار . وهو ما سنعالجه في المبحث التالي .

---

(١) ابن أبي زرع : ٥٣، ابن الخطيب: ٣ : ٢٠٧.
(٢) نفسه : ٥٤.
(٣) ابن خلدون : ٤ : ٢٩.
(٤) ابن أبي زرع : ٥٣.
(٥) المقتبس ، نشر شالميتا، ٢٦٢.
(٦) محمود إسماعيل : مقالات، ص ٥٨.

الفصل الثاني

طور الإنهيار (٢٢١ - ٣٧٥هـ)

انتهينا إلى ارتباط وأطوار القوة والتوسع في تاريخ الدولة الإدريسية بالصحوة البورجوازية . ولنحاول إثبات ارتباط طور الضعف والإنهيار بسيادة النمط الأقطاعي .

من أهم الشواهد في هذا الصدد أن الإقطاعية المرتجعة ظاهرة شملت العالم الإسلامية بأسره حول منتصف القرن الثالث الهجري ؛ كما أثبتنا في دراسة سابقة[1] . وبرغم صعوبة الكشف عن معطياتها في مجتمعات المغرب الوسيط لغلبة تأثير البنى القبلية ـ[2] إلا أن هذه المجتمعات في صيرورتها التاريخية لا تنبو عن حركة تاريخ الشرق الإسلامي . ولدينا من القرائن ما يرجح ذيوع وسيادة الإقطاعية في الدولة الإدريسية حول منتصف القرن الثالث الهجري .

من هذه القرائن : ظاهرة تكوين الضياع الواسعة التي حازها التجار والحشم والأولياء على حساب الأرض الخراجية[3] . كذا نجاح الفرق المذهبية المتمردة في الاستقلال بأهوازها وزراعتها عن طريق العبيد والرقيق[4] . هذا

(١) عن العوامل الممهدة والأسباب الموضوعية للظاهرة ؛ راجع : محمود إسماعيل : سوسيولوجية الفكر الإسلامي ، جـ ٢ ، ص ١٠ وما بعدها الدار البيضاء ١٩٨١ .
(٢) راجع : الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .
(٣) محمود إسماعيل، سيوسيولوجيا : ٢ : ٣٣ .
(٤) نفسه : ٣٦ .

بالإضافة إلى ما ترتب عن الحروب بين أفراد الأسرة الإدريسية وما نجم عن الحروب القبلية والعنصرية من استيلاء المنتصر على ممتلكات المهزوم ؛ حتى غدا « قانون الغلبة » يشكل عصب نظم الملكية آنذاك .

وقد عول الأمراء الأدارسة المظفرين على إعادة توزيع أراض خصومهم المغلوبين على الأبناء والأخوال والأعمام[١] بعد أن استقلوا عن فاس تماماً؛ حيث غدت ديارهم أشبه « بالكور المجندة » و« المدن المحصنة » المستقلة عن بعضها البعض . وحسبنا أن هؤلاء الأمراء وشيوخ القبائل والمذاهب لم يجدوا غضاضة في ضرب العملة بأسمائهم[٢] . ولم يجدوا حرجاً في تزييفها حتى أن التجار كانوا يتعاملون بالدراهم وزناً لا عداً[٣] . كما حرص الأمراء على جباية الضرائب من الحلي ورؤوس الماشية[٤] ؛ لنفس الأسباب .

بديهي أن تسفر سيادة الإقطاعية عن تدهور الإنتاج الذي كرس للاستهلاك المحلي ؛ فالمزارع أقفرت والمراعي خربت من جراء الحروب الإقطاعية . وتدهور الإنتاج الصناعي من جراء الصراع حول مناطق التعدين[٥] . وبالمثل تدهورت التجارة نتيجة تضاؤل الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي ، فضلاً عن اضطراب الأمن ووقوع طرق التجارة ومنافذها ومدنها في أيدي قوى خارجية طامعة . فقد استولى الفاطميون على تلمسان أهم أسواق التجارة الواردة من الشرق . واستولى أمويو الأندلس على سبتة وأصيلا . كما استردت بورغواطة سيادتها على تارودانت وكلها مدن هامة ذات صلة بتجارة الشمال والجنوب والشرق - والغرب . ناهيك عن الشطط في فرض المكوس والمغارم[٦] وتفشي الغش

---

(١) انظر : Eustache : Op. Cit. p.43 .

(٢) عبد الكريم بيصعين : ٧٨ .

(٣) البكري : ٧٨ .

(٤) نفسه : ١٦٢ ، ابن حوقل : ١٠٠ .

(٥) البكري : ٤٢ .

(٦) محمد حباني : ٣٠٨.

والتدليس بعد أن فقد المحتسب صلاحياته في الإشراف على الأسواق[١] . ولاغرو فقد فرضت ضرائب ذات صبغة إقطاعية « كالكلس » و« المعونة » وتعرض التجار للسطو والمصادرة[٢] .

بديهي أن تعكس الأحوال الإقتصادية المتردية آثارها على الأوضاع الإجتماعية . إذ اختلت البنى الإجتماعية بعد هجرة القبائل البدوية الزناتية من الغرب الأوسط إلى الأقصى[٣] . وذوت الحياة المدينية والعمرانية حتى فلم تؤسس مدن جديدية إبان تلك الحقبة[٤] ؛ باستثناء تيطاون التي جرى تخريبها المرة تلو الأخرى .

بديهي أن يؤدي خراب العمران وغلبة الطابع البدوي والإقليمي والعسكري[٥] ـ وكلها شواهد على سيادة الإقطاعية ـ فضلاً عن الحروب الداخلية والخارجية[٦] وتفاقم ظاهرة العيارين والشطار[٧] ؛ إلى مزيد من التدهور الاجتماعي . إذ عملت الحروب المستمرة عملها في نقص السكان . وزاد الطين بلة شح الأقوات وارتفاع الأسعار وما صاحب ذلك من مجاعات وأوبئة . وقد قدم ابن أبي زرع[٨] سجلاً وافياً عن هذه المجاعات والأوبئة التي وقعت في أعوام ٢٣٩ ، ٣٢٤، ٣٥٥، ٣٦١ هـ. ولا حظ أن وسق القمح الذي

---

(١) نفسه : ٢٩٤.
(٢) هوبكنز : ٨١.
(٣) ابن حوقل : ١٠٠ .
(٤) راجع : سنوسي يوسف: دورزناتة في المغرب الإسلامي من خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين ـ رسالة دكتوراه ـ مخطوطه ، ص ١ ـ ص ٦٣.
(٥) الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ١٣ .
(٦) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا : ٢ : ٥٨.
(٧) ابن حوقل : ١٠٠ .
(٨) عبد الكريم بيصعين : ٩٥.
(٩) القرطاسي : ١٠٠ .

كان يباع بثلاثة دراهم[1] إبان الحقبة السابقة ارتفع ثمنه إلى ثلاثة دنانير[2] وأكثر إبان الحقبة الإقطاعية .

ومن الطبيعي أن يغرز الأساس الإقتصادي ـ الاجتماعي المتدهور أوضاعاً سياسية متردية . إذ أسفر عن ضعف ثم انقطاع نفوذ المخزن وتفاقم ظاهرة الصراع الأسري وتفشي الإقليمية والمحلية والقبلية والطائفية . هذا فضلاً عن تفجر ثورات اجتماعية في المدن الهامة كفاس والبصرة وأصيلا وسبتة[3] . وأخيراً تفاقم ظاهرة التطرف الديني[4] والمذهبي[5] . وكلها ظواهر سوف نتناولها بالبحث والدراسة .

لذلك حق لبعض الدارسين[6] القول « إذا كان للصبغة القبلية والمذهبية دور واضح في الصراح السياسي والعسكري ؛ فإن ذلك لم يكن إلا غطاء لأسباب أعمق، اقتصادية وتجارية على الخصوص ». وحق لباحث آخر[7] القول : « شهد المغرب الأقصى خلال القرن الثالث تحولات دينية ومذهبية كبيرة . . إذ أدى انعدام مركزية الحكم وتعدد اتجاهات السكان السياسية والعنصرية إلى أن تستغل الحركات المذهبية هذه التناقضات لبث إديولوجياتها . ولم يزد تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هذا الاتجاه إلا تعمقاً : الشيء الذي طبع المنطقة بطابع عدم الاستقرار ودخول المغرب الأقصى في دائرة محاولات الاستقطاب الخارجية ».

ونظرة عامة على خريطة الدولة الإدريسية آنذاك تثبت ظاهرة الإقطاعية بما

---

(١) نفسه : ٩٦.

(٢) نفسه : ٩٨.

(٣) البكري : ١٠٩ .

(٤) نفسه : ١٢٤.

(٥) عبد الكريم بيصعين : ٩٨.

(٦) الحبيب الجنحاني : ٢٩.

(٧) عبد الكريم بيصعين : ١٢٠ ، ١٢١.

لا يدع للشك سبيلاً . فقد استقل بنو عيسى بغـازاز الشمالي وأزفور وتادلا[1] ، وبنو القاسم بأصيلا والبصرة[2] ، وبنو عبد الله بنفيس وبلاد الصامدة والسـوس الأقصى[3] ، وبنـو عمر ببـلاد الريف الجنـوبي[4] . كما استقـل بنـو سـليمـان بتلسمان وأعمالها مستغلين الفرصة لدعم نفوذهم وترسيخ استقلالهم .

وإلى جانب هذه الامم الكبرى استقلت القبائل بمضاربها. كما وجـدت تجمعات طائفية ومجتمعات إثنيـة استحدثت نـظماً وأعـرافاً بـدوية وعشـائرية وعسكرية كما سنوضح في موضعه .

ولنبدأ بعرض القسمات المميزة لمجتمع الأدارسة إبان الحقبة الإقطاعية .

أما عن ظاهرة التنافس والصـراع بين أمراء ورؤسـاء الكيانـات الإدريسية نـلاحـظ أنها استهـدفت غايتين ؛ الأولى تـوسيع منـاطق النفوذ على حسـاب الجيـران ، والثانيـة محاولـة السيطرة على فـاس لما لهـا من أهميـة اقتصـاديـة وروحيـة[5] وديموجـرافية . وقـد سبق رصد بـواكير هـذه الـظاهـرة في الحقبـة الإدريسيـة الأولى فيما جـرى من صراع بين عيسى بن إدريس وأخيـه مـحمـد وكيف انتهى الحال بتكليف محمد بن إدريس أخاه عمر بمـواجهته حتى هـزمه وضم أمـلاكه . لكن آل عيسى مـا لبثوا أن استـردوا نفوذهم على تـادلا وفـازاز وأوزفـور . يفهـم ذلك من كتب المسكوكـات التي توضـح أنهم كانـوا يضربـون السكة باسمهم حتى سنة ٢٧٠ هـ[6] .

وثمة محاولة أخرى قام بها القاسم بن إدريس الذي استقل بالبصرة وأصيلا وطمع في إسقاط كافة الدويلات والكيانات السياسية بالمغرب الأقصى وإحيـاء

---

(١) ابن عذاري : ١ : ٢١١ .
(٢) نفسه : ٢٣٣ .
(٣) البكري : ١١٠ .
(٤) نفسه : ٧٧ .
(٥) Marcais, G: La Berberie Musulmane et L'orient, Paris, 1964, p. 129.
(٦) Eustache : Op. Cit. p.128.

مجد الأدارسة الأوائل . ولسوف نعـرض لجهوده في هـذا الصدد في المبحث التالي . ونكتفي الآن بالإشارة إلى فشله نتيجة تـدخل أمويي الأندلس الـذين وصفوا حداً لطموحاته الوهمية .

أما داوود بن إدريس الذي استأثر بتسول وتازا وهـوارة فكان أقـل طموحـاً ؛ إذ اقتصـر على الاستحواذ على فـاس. وقـد تمكن بـالفعـل من دخـول عـدوتهـا الأندلسية بمساعدة بعض قبائل[1] البربر منتزهاً ضعف أمـرائها الأدارسـة الذين كانوا عازفين عن السياسة منشغلين إما بالعبادة والنسك أو العربدة والتهتك[2] .

هـذا عن أدارسة الشمـال . أما أدارسـة الجنوب فقـد انتهزوا صـراعات إخـوانهم في الشمال لإحكـام قبضتهم على ديارهم . فضـلاً عن الدخـول في صراعات بين بعضهم البعض من أجل السيطرة على مناجم الفضة ومنافذ تجـارة السودان[3] .

وفي هذا الصدد دار صراع بين عبد الله بن إدريس وبين أبناء عمومته من بني عيسى وبني حمزة وبني يحيى للسيطرة على الطريق العربي إلى السودان[4] ودارت حـروب طـاحنـة أضعفتهم جميعـاً وزادت في تفـاقم ظـاهـرة التجـزئـة السيـاسيـة ، بعـد أن عـولـوا على تقسيم أقـاليمهم «دومنيـات» بين الأبنـاء والأحفـاد . فقد أقـطع القاسم بن إدريس ابنـه إبراهيم البصـرة . وابنـه أحمـد كـرت ، وابنه محمد مـا سيتـة . وقـد أورثهـا الأخيـر وابنـه الحسن المعـروف بالحجام . كما دخل الحجام في صراع مرير مع بني عمر للسيـطرة على فاس وتمكن من دخولها بالفعل قبيل التدخل الفاطمي بالمغرب الأقصى[5] .

---

(١) ابن عذاري : ١ : ٢١١ .

(٢) أوردت المصادر قصة وله يحيى بن يحيى بن إدريس بامرأة يهودية ، وذكرت كيف دخل وراءها الحمام متخفياً في لباس امرأة لينال منها مأرباً ١١٠ .

انظر : ابن أبي زرع : ٧٧ .

(٣) عبد الكريم بيصعين : ٣٨ .

(٤) نفسه : ٣٩ .

(٥) البكري : ١٢٦ ، ١٣٠ .

وعلى نفس المنوال نسج أدارسة نفيس وإيجلى . فقد حاز جعفر بن عبد الله بن إدريس مدينة نفيس وأورثها ابنه حمزة[1] . ودخل الأخير في نزاع مع أدارسة جبال درن من بني أبي القاسم إدريس بن محمد بن جعفر بن عبد الله . كما اشترك البيتين في صراع محموم اندلع بين أحمد الكرتي وبين ابن أخيه الحسن الحجام[2] ؛ أنهك الجميع ومزق دولة الأدارسة إرباً .

هكذا أدت الحروب الأسرية بين آل إدريس إلى مزيد من التشرذم والتمزق الذي ازداد تفاقماً من جراء الحروب الإقطاعية فضلاً عن العرف الإقطاعي من تقسيم الإقطاع بين الأبناء والأحفاد .

أما الظاهرة الثانية ، فقد ترتبت على ضعف البيت الإدريسي وفقدان هيبة « المخزن » . ألا وهي ظاهرة صراع العصبيات .

وقد سبق أن رصدنا الخريطة الاجتماعية لدولة الأدارسة وأثبتنا احتواءها عناصر وقبائل شتى ؛ من بربر - بتروبرانس - وعرب - قيسية ويمنية - أفارقة وأندلسيين ، فضلاً عن الفرس واليهود . ولاحظنا كيف مهدت الطبيعة الجغرافية لحركات الانتزاع ، وكيف فجرت حروباً بين السهل والجبل ، بين المزارعين والرعاة . كما أوضحنا لماذا نجح الأدارسة الأوائل في مواجهة السخائم العصبية بفضل أسلوب « الموازنة » فضلاً عن القمع والبطش بالإضافة إلى تسخير طاقاتها العسكرية في حروب خارجية توسعية .

لكن الحقبة الإقطاعية شهدت إحياء النعرات العرقية إذ فتح الباب على مصراعيه « لتصفية الحسابات القديمة » خصوصاً بعد تهاوي سلطة « المخزن » .

وليس أدل على ذلك من نجاح بعض المغامرين العرب في الاستيلاء على فاس واحتكار السلطة بها؛ كما هو حال عبد الرحمن بن أبي سهل الذي طرد

---

(١) نفسه : ١٦٠ .

(٢) نفسه : ١٢٧ .

يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس على أثر فضيحة مع عشيقته اليهودية[١] . وبالمثل نجح ربيع بن سليمان من عرب فاس في إعلان الثورة على يحيى بن القاسم الإدريسي وقتله سنة ٢٩٢ هـ[٢] . ولا يخفي دور العرب الأندلسيين . في سبتة وأصلاً - في التواطؤ مع أمويي الأندلس ضد أدارسة الريف ؛ وهو ما سنعرض له في موضعه .

أما البربر ، فقد لاحظنا دورهم في إذكاء الصراع بين بني إدريس ونجاحهم بعد التواطؤ مع بني جلدتهم في المغرب الأوسط في الكيد لهم . ونضيف في هذا الصدد نجاحهم أيضاً في الاستيلاء على فاس . فريحان المكناسي حكم عاصمة الأدارسة من قبل موسى بن أبي العافية سنة ٣٠٩ هـ[٣] . وغدر حامد بن حمدان الأوروبي بالحسن بن محمد بن القاسم الإدريسي لصالح موسى بن أبي العافية[٤] .

كما انتهز البربر فرصة الصراع بين عرب عدوتي فاس وتدخلوا في إذكائه انطلاقاً من أحقاد عنصرية[٥] .

وإذا عبرت هذه الوقائع عن دور البربر ضد الأدارسة في فاس ؛ فلا شك أن دورهم خارجها كان أخطر وأفدح . وقد اتخذت معارضتهم صوراً وأشكالاً شتى . منها القيام بحركات ذات طابع هرطقي اجتماعي ، كحركة حاييم المغتري ببلاد غماره التي سنعرض لها فيما بعد بالتفصيل[٦] .

ومنها أيضاً تكوين أحلاف قبلية مناوئة للأدارسة نجحت في تكوين كيانات ذات طابع بربري قح : فيما عرف باسم « دول الأشياخ » - أمغارن - وخاصة في

---

(١) ابن أبي زرع : ٧٨.

(٢) نفسه : ٨٠.

(٣) ابن أبي زرع : ٨١.

(٤) نفسه : ٨٣.

(٥) محمد حباني : ٣١٠.

(٦) عبد الكريم بيصعين : ٤٤ .

أغمات ودرن . وساتند الحكم في هذه الكيانات على الأعراف البدوية ؛ حيث أسندت السلطة إلى مجالس قبلية يتداول شيوخ البربر رئاستها بالتناوب لمدة سنة[1] . وأدى نجاح هذه النظم إلى هجرة الكثير من قبائل « السيبة » في المغرب الأقصى للعيش في كنفها . وبالمثل أغرت هذه القبائل بني جلدتها في المغرب الأوسط للقدوم إلى المغرب الأقصى هرباً من اضطهاد الفواطم . بل إن عناصر عربية انتهزت نجاح هذه النظم ووفدت من الخارج لتستقر في بلاد الهبط والبصرة لإذكاء الصراعات بين هذه الكيانات البربرية وبين الأدارسة[2] .

وأسفرت هذه الظاهرة عن مزيد من خلخلة البناء الاجتماعي بالمغرب الأقصى فضلاً عن المزيد من الاضطراب السياسي والتداعي الحضاري . ولعل في هجرة بدو زناتة المغرب الأوسط إلى الأقصى وما ترتب عليها من نتائج وخيمة ما يغني عن اللجاج[3] .

ومن مظاهر تفاقم السخائم العصبية كذلك ما عولت عليه العناصر والعصبيات البربرية من رفض الجبايات « وكسر الخراج »: الأمر الذي زاد في إضعاف حكم الأدارسة .

وترتب على ذلك كلّه إثارة الشقاق بين الحواضر والبوادي . وإحياء السخائم القديمة بين العرب والبربر ؛ حتى ذكر البكري[4] أن كل عنصر منهما كان يتخذ مقابر خاصة تحرم على موتى العنصر الآخر . بل إن البربر لم يتورعوا في بعض المدر ـ كأغمات ـ عن طرد سكانها من العرب[5] . وتنسحب نفس المقولة على مدينتي أوزفور ووزيغة[6] .

---

(١) ابن خلدون : ٦ : ٣٦٧ .

(٢) عبد الكريم بيصعين : ٨٧.

(٣) راجع : سنوسي يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) المغرب : ١١٠ .

(٥) نفسه : ١٣٦ .

(٦) نفسه : ١٥٥ .

هكذا شكل البربر عنصراً مناوئاً لأمراء الأدارسة ، عبر عنه نص لابن حيان[1] حيث ذكر على لسان أحد هؤلاء الأمراء : « إن البربر إلى اليوم على عاداتهم الأولى معنا . إن هممنا بتشديد السلطان هربوا عنا ونفروا منا واتخذوا الحصون علينا ؛ فمرة نذهب إلى محاربتهم وتارة نؤول إلى مداراتهم » .

أما الظاهرة الثالثة التي تفاقمت أخطارها إبان الحقبة الإقطاعية ؛ فهي التعصب المذهبي والتطرف الديني . وقد سبق تبيان الخريطة المذهبية والدينية لدولة الأدارسة ، وأوضحنا كيف كان التسامح العقيدي سمة من سمات العصر الإدريسي الأول . وكيف كان الالتئام الزيدي ـ الاعتزالي بمثابة إديولوجية معتدلة ووثائق خفف من غلواء العصبية العنصرية والقبلية ، ووسيلة توسل بها « المخزن » في لم شتات كافة الطوائف والإفادة من فعالياتهم في النواحي الاقتصادية والعمرانية فضلاً عن إذكاء الحماس الديني وتسخيره في خدمة مشروعات « المخزن » التوسعية . ودللنا على ذلك بالنقود والمسكوكات الإدريسية التي خلت من شعارات الشيعة واقتصرت على شعارات العدل[2] والتوحيد . كما أوضحنا كيف تمكن إدريس الثامن من محق بواكير الانتزاء ذي الطابع المذهبي كما هو الحال بالنسبة لأوربة المعتزلية ومطفرة الصفرية . وانتهينا إلى تفسير ذلك في إطار الصحوة البورجوازية التي عمت المغرب الأقصى حتى العقد الثالث من القرن الثاني الهجري .

أما الحقبة الإقطاعية : فقد شهدت بزوغ التعصب الديني وتفاقم الطائفية والتطرف حتى غدت المذهبية بآثارها السلبية والعصبية العنصرية والقبلية وجهين لعملة واحدة .

بدءت بواكير هذه الظاهرة في أخريات عهد إدريس الثاني الذي عول على الانتصار للمذهب الزيدي[3] . وهو أمر فجر الصراع بين أصحاب المذاهب

---

(١) المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٢٩٢ .

(٢) راجع : Eustache : Op. Cit. p.288.

(٣) هناك صورة لدرهم ضرب من أواخر حكم إدريس الثاني ، يحمل شعارات الشيعة =

المختلفة من زيدية واعتزالية وخارجية وأهل سنة . بل لم يدخر الأدارسة الأواخر وسعاً في استشارة أصحاب هذه المذاهب المغايرة للمذهب الزيدي[1] .

وربما كان إعلان الخلافة الفاطمية بإفريقية والأموية بالأندلس من أسباب حرص الأدارسة الأواخر على إظهار التشيع الزيدي : تعبيراً عن حقهم في الخلافة الذي طالما طالبوا به وناضلوا من أجله من بني العباس .

وما يعنينا أن حرص الأدارسة الأواخر على إظهار مذهبهم إلى انفراط الوحدة الإديولوجية التي ظلت عهود الأدارسة الأوائل . وننوه بأن قضية المذهبية والطائفية لم تكن إلا غطاء دثر مصالح وطموحات قوى اجتماعية هالها ما تردى إليه الأدارسة إبان الحقبة الإقطاعية من الضرب عرض الحائط بسياسة « العدل » الاجتماعي و« التوحيد » السياسي .

وحسبنا أن شيوخ المالكية ورؤساء المعتزلة شكلوا إبان تلك الحقبة طبقة ارستقراطية تجارية حازت الجاه والثروة واقتنت الضياع واستأثرت بالسلطان[2] . وهو أمر أكده ابن حوقل[3] ـ الذي زار المغرب الأقصى آنذاك ـ حين وصف هذه الأرستقراطية « بالغنى وسعة المال ». هذا في الوقت الذي شكل فيه الخوارج الصفرية طبقة مستضعفة ومضطهدة كما سنوضح في موضوعه .

كالمهدوية واسم علي بن أبي طالب :

« إدريس ـ محمد رسول الله ـ المهدي إدريس بن إدريس ـ علي » .

انظر : Eustahe : Op. Cit. pp. 199, 200.

(١) يظهر ذلك في نقوش على عملة إدريسية ضربت سنة ٢٤٧ هـ . وهناك صورة لشعارها :

« علي خير الناس بعد النبي ؛ كره من كره ورضي من رضي ».

انظر : Eustache : Op. Cit. p. 155.

(٢) ابن أبي زرع : ٢٩ .

(٣) صورة الأرض : ٩٠.

في ضوء تلك الرؤية السوسيو ـ اقتصادية يمكن تفسير الصـراع بين أهل السنـة ـ والزيـدية في إيجلس والسـوس الأقصى . مصداق ذلـك مـا قـرره ابن حوقل[1] بـأن الصراع الـذي كفر فيـه الطرفـان بعضهما البعض كـان من أجل الاستحـواز على منـاجم النحاس . وأضـاف بـاحث[2] معـاصـر إلى الـعـامـل الاقتصادي دافعاً سياسياً حين ذهب إلى أن المالكية كانوا يطمحون إلى الانعتاق من سيطرة آل إدريس .

وإذ تمحور الصراع في الجنـوب حول منـاجم النحاس ؛ فقـد تبلور في الشمال حول المدن التجارية والاستراتيجية والثغور الأطلسية ، كتلمسان وسبتة وأصيلاً . وفي هذا الصدد لعب المالكية دوراً كبيـراً في تعضيد ومؤازرة أمويي الأندلس ضد الأدارسة ، كما سنوضح في موضعه .

وفيمـا يتعلق بالصـراع الزيـدي ـ المعتزلي : نعلم أن الـوفاق المـذهبي والسياسي بين الطرفين انفرط وانفض مذ قتل إدريس الثاني إسحق الأوروبي . وبـرغم انصياع أوربـة لمحمـد بن إدريس ؛ فـإنهـا مـا لبثت أن سخـطت على أخلافه . تمثل هذا السخط في إزكاء حركات الانتزاء ذات الطابع العنصري من ناحية وفي تكوين تجمعات اعتزالية مستقلة من ناحية أخرى ؛ كتلك التي ترأسها معزوز بن طالوت ومكابر بن درقم وأبو حفص الزناتي . وليس أدل على استقلال هؤلاء عن الأدارسة من ضربهم السكة بأسمائهم[3] .

وخير قرينة على ضآلة الحوافز المذهبية بالقيـاس إلى الأسباب السيـاسية والاقتصادية من تشجيع هذه الكيانات بورغواطة الصفرية للتوسـع على حساب الأدارسة ، فضلاً عن تعاونهما معاً في مراقبـة طرق التجـارة إلى السودان[4] .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) انظر : عبد الكريم بيصعين : ١١٧ .
(٣) انظر : Eustache : Op. Cit. p.p. 308, 313.
(٤) عبد الكريم بيصعين : ١١٢ .

ولعل في اصطحاب يونس البورغواطي زيد بن سنان المعتزلي في رحلته إلى الشرق ما يشير إلى هذا الوئام .

أما عن موقف الخوارج الصفرية إزاء الأدارسة الأواخر . فقد اتسم بالعنف الثوري .. وقد سبقت الإشارة إلى أسباب الصراع بين الخصمين وأوضحنا أنها كانت اقتصادية سياسية بالأساس . ونضيف إلى ما سبق تطرف الصفرية في مسألة العدل الاجتماعي واستئثارهم في قتالهم من أجل إقرارها[1] . فإذا أضيف إلى ذلك ما بلغت دولتي بورغواطة وبني مدرار من قوة وشأو آنذاك حتى أن بورغواطة توسعت على حساب الأدارسة ، وبني مدرار جهزوا حملة لغزوهم ؛ أدركنا لماذا شكلت عناصر الخوارج الصفرية بدولة الأدارسة خطراً فادحاً عليها . إذ من المؤكد تواطؤهم مع بني مذهبهم في شالة وسحجاسة ضد الأدارسة .

تشهد على ذلك ثورة عبد الرزاق الصفري الذي قاد قبيلة مديونة وغيرها من قبائل البربر ونجح في اقتحام فاس والسيطرة على عدوة الأندلسيين[2] . وبرغم فشل الثورة[3] ؛ ما انفك الخوارج الصفرية يثيرون المتاعب في وجه الأدارسة حتى انقضاء دولتهم[4] .

ومن الحركات الإجتماعية الدالة على التطرف الديني في دولة الأدارسة ، تلك التي تزعمها حاييم المغتري . حيث أندلعت من تيطاون وآزرتها قبائل غمارة وصنهاجة[5] ضد أدارسة الريف .

وقد تجلى طابعها الهرطقي في الدعوة لتخفيف العبادات كالصلاة والصوم

(١) محمدو اسماعيل : مغربيات ، ص ٥٢ .
(٢) عن تفصيلات وقائع وأحداث الثورة : راجع : محمود إسماعيل : الخوارج ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣) ابن أبي زرع : ٧٨ ، ٧٩ .
(٤) البكري : ١٢٥ ، Marcais, G : Op. Cit. p.126
(٥) البكري : ١٠٠ .

وحذف الطهارة والوضوء والحج ، والتـأثر بـالعقـائـد القديمـة في الإقليم من اعتماد الكهانة والسحر والدعوة إلى الإباحية[1] . أما الجانب الاجتماعي فيمكن الكشف عنه من خلال معارفنا عن الحركات الثورية في العلم الإسلامي الوسيط والتي كانت تربط بين الكهانة والإباحية كتعبير عن الضائقات الاقتصادية .

هكذا اسفرت دراسة سياسـة الأدارسة الـداخلية عن حقبتين متميـزتين : الأولى تمثل طور القـوة والتوسـع والأزدهار كـانعكاس للصحـوة البورجـوازية ، والثانية تمثل طور الضعف والانهيار كنتيجة لسيادة الإقطاعية .

ولسوف ينعكس تأثير الصحوة وانتكـاسها كـذلك على سيـاسة الأدارسـة الخارجية . وهو ما سنثبته في المبحث التالي .

---

(١) البكري : ١٠١ ، عبد الكريم بيصعين : ١٠٧ .

الباب الثالث

علاقات الأدارسة الخارجية



تفردت علاقات الأدارسة الخارجية بخاصية لا نجد لها نظيراً في سياسات دول المغرب في العصور الوسطى . ذلك أن هذه العلاقات صيغت على أساس العداء لكافة دول المغرب المعاصره كبورغواطة وبن مدرار وبن رستم والأغالبة فضلاً عن الخلافة العباسية وأموبي الأندلس . وظل هذا العداء قائماً حتى نهاية القرن الثاني الهجري حيث سقطت كافة دول الغرب المستقلة وتوقعت دولة الأدارسة في حجر النسر شمالي المغرب الأقصى . وحين دخل المغرب الكبير في حقبة جديدة على أثر قيام الخلافة الفاطمية ؛ شهد المغرب الأقصى صراعاً محموماً بين الفاطميين وأمويي الأندلس وقف الأدارسة إزاءهما موقفاً يتراوح بين العداء والود لهما حسب مقتضيات الحال .

والحق أن تعليل سياسة الأدارسة الخارجية العدوانية يشكل لغزاً استعصى تفسيره على معظم المؤرخين المحدثين . ذلك أنهم تأثروا برؤى القدامى التي تؤكد على التيولوجية المذهبية والعصبية القبلية والعنصرية في تفسير تاريخ المغرب الوسيط بوجه عام وتاريخ الأدارسة على نحوٍ خاص . على أساس أن الأدارسة كانوا عرباً شيعة يحكمون قبائل من البربر على مذاهب شتى سنية واعتزالية وخارجية . كما تأثر المحدثون أيضاً بالتفسيرات الخاطئة لمقولات ابن خلدون عن الدعوة المذهبية والعصبية كشرطين هامين لقيام الدول .

ولن نقف طويلاً عند هذه التفسيرات التيولوجية والإثنية أكثر من التنبيه إلى أنها تجعل من «الظاهرات» عللاً وأسباباً .

أما عن التأويل الخاطىء لمقولات ابن خلدون التي جعلت منه مؤرخاً «شعوبياً» و «طائفياً» ؛ فلا أقل من تقديم إيضاحات تثبت كمون الحوافز المادية وراء «ظاهرات» المذهبية والعصبية . فالدعوة المذهبية في نظر ابن خلدون مجرد وسيلة إديولوجية تفيد في لم شمل العصبية من أجل إقامة الدولة ؛ أي الانتقال من مرحلة التوحش والبداوة إلى مرحلة العمران والتحضر ؛ حسب رأي ابن خلدون .

أما العصبية ؛ فهي لا تعني عنده رابطة الدم بقدر ما تعني القوة المادية والبشرية . بل إن التئام شمل العصبية لا يتم إلا عن طريق «الغلبة» «والتطاول» أي الصراع الذي يستهدف في النهاية تحقيق الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية وإعلان النفسانية »[1] . لذلك لم نخطىء حين ذهبنا إلى أن فكر ابن خلدون التاريخي ينحو نحواً مادياً[2] . ولم يخطيء أحد تلامذتنا[3] حين رأى أن نظرية ابن خلدون في العصبية والدعوة المذهبية « تجمع بين الجغرافيا والديموغرافيا والقدرة والصراع » . ولم يخطيء ابن خلدون[4] نفسه حين استشف خطأ تأويل آرائه حين قال : « وهذه الآراء بعيدة عن أفهام الجمهور بالجملة لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها » .

وبالعودة إلى ابتداء قيام الدولة الإدارية ـ تطبيقاً للمنهج الخلدوني ـ نجد أنها اعتمدت على إديولوجية شيعية زيدية ـ اعتزالية وعلى عصبية من البربر هي قبيلة أوربة لإقامة دولة في المغرب الأقصى تكون نواة لتكوين خلافة علوية تضم العالم الإسلامي بأسره . وبديهي أن تحقيق هذا «المشروع السياسي الطموح» لا يمكن أن يتم إلا على أنقاض كافة القوى الإسلامية المعاصرة للأدارسة في الشرق والغرب الإسلاميين سواء بسواء . وبديهي أيضاً أن يناصب الأدارسة كافة هذه القوى العداء بكافة صوره وأشكاله .

(١) المقدمة : ١٥٤ .

(٢) راجع ،محمود إسماعيل : فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية ، بيروت ١٩٨٨ .

(٣) انظر : عبد الكريم بيصعين : المرجع السابق ، ص ٢٣٢.

(٤) المقدمة : ١٥٤ .

وهـذا التفسير يعني نفي دور العصبيـة والمذهبيـة في علاقـات الأدارسة الخارجية . على الأقل فيما يتعلق برهن الأحداث والوقائع لا بالتأويل والتفسير . ذلك أننا نعـول في هذا الصـدد على الرؤيـة الخلدونية وليس على « الخيـال » الشعوبي والتيولوجي المتواتر .

إن دراسة السياسة الخارجية لدولة ما تعني في النهاية التعامل مع كيانات سياسية تجـاوزت مرحلة البـداوة إلى طور الحضـارة . ومن ثم تصبح الـوقائـع والأحـداث ـ وإن اتخذت لبـوساً دينيـاً مذهبيـاً أو عنصريـاً أو قبلياً ـ معبـرة عن سياسات تتبنى أهدافاً «استراتيجية» اقتصادية واجتماعية . ويتـطلب تحقيق هذه الأهداف صراعاً عسكرياً ودبلوماسياً وسياسياً ودعائياً .

كمـا أن هـذا الصـراع يـدور في «مجـال حيـوي» تلعب فيـه معـطيـات «الجيو ـ بوليتيقا» وتأثيرها في قوة الدولة أو ضغطها الدور الفاعل والمؤثر. فبقدر قوة الدولة المادية والبشرية تتحدد نتائج الصراع وتتمخض عنه الآثار والنتائج .

في إطـار هذه الـرؤية ؛ يمكن رصـد وعرض وتفسيـر علاقـات الأدارسة الخارجية سـواء مع العبـاسيين والأغالبـة أو مع الكيـانات السيـاسية الخـارجية المغربية أو مع أمويـي الأندلس والفاطميـين .



الفصل الأول

سياسة الأدارسة إزاء العباسيين والأغالبة

أ ـ العلاقات الإدريسية ـ العباسية :

اتسمت سياسة الأدارسة إزاء العباسيين بالعداء برغم انتمائهما معاً لآل البيت . ويرجع هذا العداء إلى عاملين أساسيين : أولهما : طموح العباسيين لإخضاع كافة أرجاء العالم الإسلامي وتحقيق وحدة «دار الإسلام» باعتبارهم الخلفاء الشرعيين ؛ خصوصاً وأن الخلافة ـ نظرياً وفقهياً ـ لا يمكن أن تتجزأ . وهذا يفسر عدم إقدام أمراء الدول المستقلة على تنصيب أنفسهم خلفاء في الشرق والغرب على السواء . وهو أمر انسحب على الأدارسة برغم كون إمارتهم تدخل ضمن ما أسماه الماوردي «إمارة الإستيلاء» . فقد قطعوا صلاتهم تماماً بالخلافة ؛ فلم يذكروا أسماء بني العباس لا في الخطبة ولا على السكة ، ولم يتلقوا منهم التفويض والتقليد وتنصلوا من دفع الأموال السنوية ، ولم يقيموا لهم وزناً في سياساتهم الداخلية والخارجية[1] .

ولم يكن بوسع الخلافة العباسية ـ عملياً ـ ومدّ نفوذها إلى المغرب الأقصى بعد انسلاخ المغرب الأوسط عن نفوذهم نتيجة قيام دولة بني رستم عام ١٦٢ هـ . يضاف إلى ذلك انشغال العباسيين الأوائل بالمشكلات الشرقية الداخلية فضلاً عن الأخطار الخارجية على أعالي الشام والعراق من قبل البيزنطيين[2] .

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٤ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) راجع : Vonderheyden : La Berberie Orientale Sous La Dynastie des Benu'L' =

على أن انتهاء الخلافة العباسية من مواجهة هذه الأخطار حفزها إلى استرجاع نفوذها في الغرب الإسلامي بعد أن تقلص حتى لم يتعد حدود إفريقية . وبرغم إنفاذها عدداً من الحملات العسكرية ، واتباعها سياسة التحالف والدبلوماسية ، وتطبيق لا مركزية الحكم في إفريقية ؛ لم تنجح قط في استرداد أدنى نفوذ لا في المغرب ولا الأندلس .

وبقيام دولة الأدارسة عام ١٧٢ هـ وتشكيلها خطراً مباشراً على إفريقية العباسية بَل على مصر نفسها ؛ عول العباسيون على الإهتمام بمجريات الأحداث في بلاد المغرب والأندلس[١] . وبديهي أن تسفر هذه السياسة عن الصدام مع الأدارسة .

وثانيهما : أن الأدارسة الذين نجحوا في تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى ؛ راودتهم فكرة الانتقام لما حل بالعلويين من مجازر في الشرق على أيدي أبناء عمومتهم هذا فضلاً عن تحقيق أطماعهم في الخلافة التي اغتصبها بنو العباس برغم جهود العلويين في تأسيس الدعوة التي أسفرت عن سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ . وساعد على بلورة هذه الطموحات الإدريسية اندلاع العديد من الثورات ضد بني العباس وانتشار التشيع حتى بين ولاتهم وعمالهم ناهيك عن وزرائهم من البرامكة .

في إطار هذين العاملين ؛ يمكن رهن العلاقات الإدريسية ـ العباسية التي تمتد جذورها العدائية إلى ما قبل تأسيس دولة الأدارسة . ودون دخول في التفصيلات حول هذه الجذور ـ التي سبق أن عرضنا[١] وعرض غيرنا لها[٢] ـ من المفيد أن نشير إليها في عجالة باعتبارها خلفية لا سبيل إلى تجاهلها لمن يؤرخ للعلاقات الإدريسية ـ العباسية .

= Arlab, Paris, 1927, p. 26, Marcais, G : L'Afrique du Nord Français dans L'histoire, Paris, 1937, p. 149 .

(١) راجع : محمود إسماعيل : الأغالبة : ١١٢ وما بعدها .

(٢) راجع : محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص ٣٩٨ وما بعدها، بيروت ١٩٨٥ .

عرض الفصل الأول من الباب الأول لأسباب الخلاف الزيدي العباسي . كذا لمظاهره المختلفة من مساجلات نظرية حول الأحقية بالخلافة ، إلى الدعاية السياسية والصدام المسلح . ويمكن أن نضيف إلى ما سبق إفادة العلويين من تجاربهم الفاشلة في الشرق ، كذا من تجارب الخوارج الناجحة في الإنتقال بنشاطهم الدعائي من القلب إلى الأطراف حيث أضرموا ثورات توجت بتأسيس كيانات مستقلة عن بني العباس .

أفاد العلويون الزيدية من ذلك كله وتعاونوا مع المعتزلة في بث دعوتهم ببلاد المغرب وتطلعوا لتأسيس دولة بالمغرب الأقصى . وما يعنينا الآن إثبات أن العباسيين كانوا على علم ودراية بكل هذه المجريات . لذلك بثوا العيون والجواسيس للحؤول دون وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى بعد مذبحة فخ . وقد أثبتت الأحداث تفوق التنظيم السياسي السري الزيدي - الاعتزالي في هذا المجال من الصراع الخفي مع التنظيم العباسي ؛ وتمكن إدريس من الوصول إلى المغرب الأقصى سالماً . وفي ذلك يقول أحد الدارسين الثقاة(١) : « كانت جواسيس بني العباس تلاحق إدريس ؛ حيث أبلغت الخلافة العباسية ولاتها وعمالها بصفاته . فكانت نقط الحراسة المعروفة بالمسامح تترقب قدومه » .

وكلل هرب إدريس من الحجاز إلى مصر إلى المغرب الأقصى بتأسيس دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ . ولم يكن بوسع العباسيين إسقاطها في مهدها نظراً لاضطراب أمور إفريقية آنذاك ، فضلاً عن افتقارهم إلى أسطول بوسعه حمل الجيوش من الشرق إلى المغرب الأقصى(٢) .

ومع ذلك لم يقف العباسيون مكتوفي الأيدي أمام تفاقم خطر إدريس الأول خصوصاً بعد أن توسع جنوباً وسيطر على أقاليم ثرية مادياً وبشرياً . فضلاً

---

(١) نفسه : ٣٩٩.

(٢) أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ص ١٦ ، القاهرة ،

عن سيطرته على أماكن استراتيجية كمضيق تازا ومدينة تلمسان وأصبح بوسعه تجنيد الجيوش وإنفاذها نحو إفريقية .

إزاء هذه التطورات التي جعلت إدريس الأول يسفر عن طموحاته السياسية شرقاً ؛ اتخذ العباسيون عدة إجراءات للحؤول دون تحقيق أطماعه . منها إنفاذ حملة بقيادة هرثمة بن أعين إلى إفريقية للقضاء على الفوضى الضاربة فيها . كذا تشييد هرثمة عدداً من الحصون والقلاع استعداداً لمواجهة الخطر الإدريسي القادم من الغرب(١) . وأخيراً إسناد إقليم الزاب ـ على حدود إفريقية الغربية ـ إلى قائد كفؤ عرف ببلائه في نصرة الخلافة هو إبراهيم الأغلب .

وليس أدل على توجس الخليفة الرشيد من خطر إدريس الأول من أمره إبراهيم بن الأغلب بالإتصال به مباشرةً ـ دون الرجوع لوالي القيروان ـ لاتخاذ التدابير الكفيلة بوقف خطر إدريس ، وحضه إياه على مباغتته بجيش الزاب إن استطاع إلى ذلك سبيلا(٢) .

ويبدو أن هذه الإجراءات أفلحت في ردع إدريس الأول ؛ فكف عن تسيير جيوشه من تلمسان إلى إفريقية برغم مكوثه بها ثلاث سنوات يعد العدة لحملته المزمعة . لكن الرشيد أيقن أن عدم إنفاذ الحملة لا يعني وقف المخطط الإدريسي التوسعي ؛ ومن ثم عول على اغتيال إدريس تخلصاً من خطره .

ولا مناص من إثبات لغي مطول لابن أبي زرع حول هذا الموضوع لحسم الخلاف حول هذه القضية ؛ بمقارنة محتواه بالروايات الأخرى .

ذكر ابن أبي زرع أن الرشيد اغتم لخطر إدريس فاستشار يحيى البرمكي « وأخبره بأمره بعد أن قوي سلطانه وكثرت جيوشه واشتهر أمره واسمه » . قال

---

(١) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(٢) محمد الطالبي : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٣) اثبتنا نص العبارات الهامة كما ذكرها ابن أبي زرع مع التصرف فيما عداها ليستقيم سياق العرض. انظر : القرطاسي : ٢٢ ، ٢٣ .

الرشيد : « لقد عزمت على أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله . ثم إني فكرت في بعد البلاد وطول المسافة وتناءي المغرب عن المشرق ، ولا طاقة بجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ؛ فرجعت عن ذلك . وقد هالني أمره فأشر عليّ برأيك فيه » . أشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوافر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليغتاله . ثم وقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير المعروف بالشماخ . وأخبره بالمهمة التي نيط بتنفيذها ووعده برفعة المنزلة والصلات السنية « وأعطاه أموالاً جزيلة وتحفاً مستطرفة وجهزه بما يحتاج إليه . وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ثم وجه معه رجلاً يثق به وبشجاعته » . فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد «وهو يتظاهر بالطب». . . و «مازال يجد في السفر حتى وصل إلى وليلى واتصل بإدريس فسأله عن اسمه ونسبه وسبب قدومه إلى المغرب . فذكر له أنه من موالي أبيه وأنه اتصل به خبره ؛ فأتاه برسم خدمته » بسبب محبته لآل البيت . « فأسنى إليه إدريس وسربه واتخذه صاحباً ونديماً لا يجلس إلا معه ولا يأكل إلا إذا أكل معه » . وأبدى سليمان من العلم والأدب والبلاغة والجدال ما جعل إدريس يرفعه إلى تلك المنزلة . . . وأخذ الشماخ يترصد فرصة لاغتيال إدريس حتى واتته بغياب راشد . . فدخل سليمان على إدريس « وجلس بين يديه على عادته وتحدث معه ملياً وقال : يا سيدي قد جعلت فداك . إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها . ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني ؛ فخذها تتطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي . . ثم أخرجها ووضعها بين يديه . فشكره إدريس ثم أخذ القارورة وشمها . . . وتحصل بحرارة منه فتمت حيلته . . . . وخرج كأنه يريد قضاء حاجته ؛ فسار إلى منزله . وركب فرساً له من عتاق الخيل وسباقها كان قد أعدها لذلك . وخرج من مدينة وليلى يطلب النجاة . . وكانت القارورة مسمومة . فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه وانتهى إلى دماغه ؛ فغشي عليه وسقط بالأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه » .

باستكناه محتوى هذا النص الهام ؛ نقف على عدة حقائق هي : أن

الرشيد استشار وزيره يحيى البرمكي في أمر إدريس نظراً لخبرته السابقة في التعامل مع يحيى بن عبد الله - أخ إدريس - حيث تمكن عن طريق التآمر والغدر من التحايل عليه حتى تخلص منه وقضى على دولته بطبرستان في مهدها .

أما عن اختيار يحيى سليمان بن جرير المعروف بالشماخ لاغتيال إدريس الأول ؛ فقضية خلاف بين المؤرخين . ونحن نميل إلى رواية ابن أبي زرع التي تؤكد أن الشماخ لم يكن طبيباً - كما ذهب البعض - بل ادعى التطبب كوسيلة يتذرع بها في التقرب إلى إدريس . كما لم يكن زيدياً - كما ذهب البعض الآخر - إلى حد القول بأنه «متكلم الزيدية» بل كان رجل سياسة موالٍ لبني العباس ادعى أنه على مذهب إدريس لنفس السبب . كان الشماخ كما ذكر الرقيق[٣] من «موالي المهدي» الأمر الذي أهله لتنفيذ مهمته لصالح الرشيد . فلو كان زيدياً حقاً لما أقدم على فعلته . ولو كان «متكلم الزيدية» لعلم إدريس بأمره وخبره ولما سأله عن أصله ونسبه وموطنه . ونحن لا نمانع في ادعائه الطب ، كذا ادعائه التشيع الزيدي تسهيلاً لمهمته في التقرب من إدريس ؛ خاصةً وأن الكثيرين من الزيدية وفدوا إلى الغرب هرباً من بطش بني العباس ، وإيثاراً للإقامة في كنف دولة الأدارسة[٤] . المعقول أن يكون الشماخ قد أعد من قبل يحيى البرمكي إعداداً خاصاً ؛ فأحيط علماً بالمذاهب والفرق وبتحر في المذهب الزيدي حتى يحوز ثقة إدريس . خاصةً وأنه أوتي من ذلاقة اللسان وحسن البيان - كما ذكر البكري[٥] - ما زكى اختياره .

وبرغم اتساق رواية ابن أبي زرع بوجه عام ؛ إلا أنها لا تخلو من مغالطات . منها عدم إثبات قدوم الشماخ على إبراهيم بن الأغلب ببلاد الزاب

---

(١) انظر : محمد الطالبي : ٤٠٣ .

(٢) البكري : ١٢٠ .

(٣) تاريخ أفريقية والمغرب، ص ٢١٥ .

(٤) نفسه : ٢٢ .

(٥) المغرب : ١٢٠ .

وهو التآمر الأول مع الرشيد على اغتيال إدريس . ومنها أيضاً الوصف الدقيق لحال إدريس عقب تسميمه في الوقت الذي ينص فيه على أنه كان وحيداً بعد هرب الشماخ على أثر نجاح المهمة . كذلك لا منطقية وصفه لمجريات ما وقع بين المولى راشد وبين الشماخ حين لحق به راشد في الطريق من وليلى إلى إفريقية . يقول ابن أبي زرع[1] « وشد راشد على الشماخ بالسيف فقطع يده اليمنى وشجه في رأسه ثلاث شجات وجرحه في جسده » . والسؤال : كيف والحال كذلك استطاع الوصول إلى بغداد ؟ ولماذا لم يجهز عليه راشد ؟

الأمر محض مبالغات تستهدف إظهار فتوة راشد وبلائه وإخلاصه لسيده إدريس . وهي مبالغات مألوفة في كتابات ابن أبي زرع ذات الطابع المنقبي المتعاطف مع الأدارسة .

ولا مناص من الوقوف هنيهة عند إشكالية أخرى وهي كيفية اغتيال إدريس . المصادر تختلف ما بين قائل بأنه سم بقارورة طيب أو قارورة «سم»[2]، أو بمسواك[3] مسموم أو بعلاج للأسنان أو في دلاحة مسمومة . . . إلخ وأياً ما كان الأمر ، فالثابت أنه مات مسموماً ولا يمكن أن يتخذ الاختلاف حول كيفية تجرعه السم أساساً لنفي حادثة الاغتيال برمتها ؛ وهو ما ذهب إليه أحد الدارسين[3] المتشككين في اغتيال إدريس . إذ ذهب إلى « أن أنصار إدريس نسخوا قصة موته شهيداً استدراراً لعطف الجماهير على الأسرة العلوية » . وفي موضع آخر ذكر « أن العباسيين هم الذين نسخوا تلك الرواية ليحيطوا شخص الرشيد بهالة أسطورية تجعله قادراً على التخلص من خصومه مهما بعدوا » .

ونحن لا نجد مبرراً لهذا التشكيك خاصةً وأن كافة المصادر أجمعت على إثبات حقيقة الاغتيال . كما أن هذا الأسلوب وسيلة مألوفة اتبعها العباسيون

---

(١) القرطاسي : ٢٤ .
(٢) البكري : ١٢٠ .
(٣) ابن الخطيب : ٣: ٩، ١٠ .
(٤) انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٤٢٢ .

للتخلص من خصومهم في الشرق والغرب على السواء . ولسوف يعولون عليها فيما بعد للتخلص من المولى راشد وإدريس الثاني بالتواطؤ مع الأغالبة كما سنثبت في موضعه .

على كل حال ـ نرى أنه بعد أن أنجز الشماخ مهمته في اغتيال إدريس الأول ؛ عرج على إفريقية لإعلام إبراهيم بن الأغلب بنجاح المهمة . وأنفذه إبراهيم بدوره إلى بغداد حيث ابتهج الرشيد وكافأ الشماخ بأن ولاه بريد مصر(١) . أما الرشيد فقد احتفل بالمناسبة حيث انبرى الشعراء يدبجون قصائد المديح عن قدرته وجبروته(٢) .

تبقى إشكالية أخيرة ؛ هي توقيت الاغتيال . وتختلف المصادر في هذا الصدد ؛ فمنها ما تذكر وقوعه قبل عام ١٧٥ هـ(٣) . ومنها ما تؤكد حدوثه عام ١٧٥ هـ(٤) ، وأخرى ترجح عام ١٧٧ هـ(٥) . لكن نقوداً تحمل اسم إدريس الأول ضربت عامي ١٧٨ هـ ، ١٧٩ هـ(٦) تقطع بخطأ كل التواريخ السابقة . ومع ذلك يرى أحد الدارسين(٧) المحدثين أن هذه العملة برغم كونها تحمل اسم إدريس الأول إلا أنها ضربت بعد عامين من وفاته . إلا أننا نرجح خطأ هذا

---

(١) الرقيق : ٢١٥ .

(٢) امتدح أحد الشعراء هرون الرشيد بقوله :

أتظن يا إدريس أنك فاعل ... كيد الخليفة أو يقيك حذار
إن السيوف إذا انتضاها عزمه ... طارت وتعقد دونها الأغمار
هيهات إلا أن تكون ببلدة ... لا يهتدي فيها إليك نهار
ملك كأن الموت يتبع أمره ... حتى يقال تطيعه الأقدار

(٣) راجع التفصيلات عند محمد الطالبي : ٤٠٥ .

(٤) ابن الخطيب : ٣ : ١٩٦ .

(٥) ابن أبي زرع : ٢٢ .

(٦) Colin , G . S : Monnaies de la periode Idrisite trouveés à Volibilis, Hesperis, XXII, 1966, p.p. 133 à 127 .

(٧) محمد الطالبي : ٤٠٦ .

الرأي استناداً إلى تاريخ محقق هو عام ١٧٩ هـ[١] وهو العام الذي غادر فيه هرثمة بن أعين إفريقية ووصل فيه الشماخ إلى إقليم الزاب حيث التقى بإبراهيم بن الأغلب الذي وجهه إلى وليلى حيث تمكن من اغتيال إدريس في نفس العام . وبذلك يتسق هذا القول مع العملة التي سكها إدريس سنة ١٧٩ هـ .

ومهما كان الأمر ؛ فالثابت أن الدولة الإدريسية لم تسقط بعد اغتيال إدريس الأول . كما أن راشد الذي تولى الوصاية على ابنه الطفل إدريس الثاني أزمع الأخذ بالثأر ؛ فعول على إنفاذ حملة إلى إفريقية[٢] .

وتمثل رد الفعل العباسي في إيعاز الرشيد إلى إبراهيم بن الأغلبة ـ عامله على الزاب ـ بإنفاذ حملة مضادة لغزو دولة الأدارسة. ونحن نخالف الرأي القائل بأن إبراهيم بن الأغلب توجه بالفعل على رأس جيش صوب الغرب ونجح في الاستيلاء على تلمسان[٣] . وحجة صاحبه نصوص أوردها الدقيق القيرواني في هذا الشأن . لكن بالرجوع إلى هذا المصدر وغيره لم نجد أدنى إشارة إلى سقوط تلمسان في يد إبراهيم . بل تخبرنا أن تلمسان آنذاك كان يحكمها آل سليمان أبناء عمومة الأدارسة . يؤكد خطأ هذا الزعم أيضاً إنشغال إبراهيم بن الأغلب بتحقيق طموحات في حكم إفريقية حين تدخل في النزاع القائم بين الوالي الشرعي محمد بن مقاتل العكي وبين الثائر تمام بن تميم[٤] . وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن حملة راشد وحملة إبراهيم بن الأغلب لم يقدر لهما الإلتحام البتة. وأن إثارة أخبارهما كان من قبل الدعاية السياسية ليس إلا ؛ حيث لم يكن بوسع أي من الطرفين غزو ديار الآخر لانشغال الأول بأمور الدولة الإدريسية بعد اغتيال إدريس الأول وانشغال الثاني بمشكلات إفريقية .

لذلك عول الرشيد على اتباع أسلوبه التقليدي في التآمر والاغتيال . وقد

(١) الرقيق القيرواني : ٢٠٣ .
(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء : ١ : ٢٣٤، فرانز ١٨٦٦ .
(٣) محمد الطالبي : ٤٠٧.
(٤) محمود إسماعيل : الأغلبية : ٢٨ وما بعدها .

استهدفت مؤامرته هذه المرة اغتيال راشد بالاتفاق مع إبراهيم بن الأغلب . أما عن كيفية نجاح المؤامرة فهو ما سنفصله في المبحث التالي . ونكتفي بالإشارة إلى خطأ آخر وقع فيه أحد الدارسين[1] المتخصصين الثقاة حين ذهب إلى أن موت راشد لم يكن نتيجة اغتيال وإنما قتل في معركة ضد إبراهيم بن الأغلب . وليس أدل على خطأ هذا الزعم من شعر لإبراهيم نفسه من المفيد إثباته ؛ حيث يقول[2] :

ألم ترني بالكيد أرديت راشدا	وإني بأخرى لابن إدريس راشد
تناوله عزمي على نأي داره	بمختومة من طيهن المكائد
ثلاثون ألفاً سقتهن لقتله	لأصلح بالغرب الذي هو فاسد

وعلى أثر نجاح إبراهيم الأغلب في اغتيال راشد ؛ كافأه الرشيد بتوليته إفريقية . وأتاح له من السلطات والصلاحيات ما لم يتح لغيره من الولاة لا لشيء إلا ليجعل من إفريقية ثغراً عسكرياً يحول دون تسرب الأدارسة شرقاً .

وفضلاً عن أسلوب الاغتيال وتدبير المكائد ضد الأدارسة ؛ اتبع العباسيون أسلوباً آخر أبعد ما يكون كذلك عن المواجهة العسكرية . لم يكن هذا الأسلوب إلا محاولة تشويه الأسرة الإدريسية بالتشكيك في نسبها . إذ شنوا حملة دعائية فحواها أن إدريس الثاني لا ينسب إلى أبيه بل إلى المولى راشد . ولطالما اتبع العباسيون هذا الأسلوب المشين لتشويه خصومهم في الشرق والغرب على السواء .

فإذا كانوا قد أفلحوا في إثارة مسألة النسب لتبرير حقهم في الخلافة دون العلويين بعد قيام دولتهم سنة ١٣٢ هـ واستئثارهم بالخلافة ؛ فقد شنوا بعد ذلك حرباً دعائية شعواء للتشكيل في نسب الفواطم عن طريق الزعم بأصلهم اليهودي . وبالمثل اتبعوا ذات الأسلوب ضد الأدارسة كما أشرنا من قبل ؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون وكشف عن أسبابه وملابساته وغاياته . ولا بأس من

(١) انظر : محمد الطالبي : ٤٠٧ .

(٢) ابن الآبار : ١ : ٢٣٣ .

عرض بعض مقولاته في هذا الصدد . يقول ابن خلدون[١] : «. . . وما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى . . . بالتظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولاه ؛ قبحهم الله . . . كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس . . . إذ أن تجدد الدولة بإدريس بن إدريس كان عليهم أنكى من وقع السهام . . . وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية . . . وكان نسب بني إدريس بمواطنهم بفاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه . . . وليس في المغرب فيما نعلم من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن . . » .

هكذا يقف ابن خلدون على الدافع من وراء هذه الحملة العباسية الدعائية ضد الأدارسة ، ويرجعه إلى عجزهم عن مناوءة خصومهم عسكرياً .

وإذا لم يحقق هذا الأسلوب أغراضه ـ كما أوضح ابن خلدون ـ لم يجد العباسيون مناصاً إلى العودة لأسلوب التآمر والاغتيال خاصةً بعد أن شب إدريس الثاني عن الطوق وآزرته القبائل على اختلافها ونجح في توسيع رقعة الدولة الإدريسية بعد أن أعاد فتح الأقاليم التي تمردت إبان طفولته ، وأحيا المشروع الإدريسي الطموح في التوسع شرقاً . لذلك تآمر العباسيون بالإشتراك مع الأغالبة في إثارة المتاعب داخل الدولة الإدريسية بتحريض قبائلها على الثورة وخاصةً أوربة المعتزلية ومطفرة الصفرية[٢] .

وحين فشلت هذه المكائد لم يجد العباسيون بداً من التآمر على حياة إدريس الثاني بالتواطؤ مع الأغالبة كذلك . وقدر لهم تحقيق مأربهم[٣] .

على أن تدهور أحوال دولة الأدارسة وَأْدَ مشروعهم التوسعي في ذات

(١) المقدمة : ٢٣ ـ ٢٦ .
(٢) سنعرض للتفصيلات في المبحث التالي .
(٣) سنعرض للتفصيلات في المبحث التالي .

الوقت الذي آلت فيه الخلافة العباسية إلى المأمون الذي أبدى تسامحاً مع العلويين إلى حد تعيين أحدهم ـ علي الرضى ـ ولاية عهده ؛ كل ذلك وضع حداً للعداء بين الطرفين . وأوكل العباسيون إلى الأغالبة مهمة مراقبة بني إدريس . وانصرف العباسيون إلى أمور المشرق كما انصرف الأدارسة إلى إتمام نشر الإسلام والتعريب في المغرب الأقصى[١] .

وخلال العصر العباسي الثاني شغل العباسيون بالخطر الفاطمي الذي ورث المشروع الإدريسي في التوسع شرقاً . كما شغلوا عن الفاطميين أنفسهم باسترداد نفوذهم في العراق بعد تطاول العسكر التركي .

وكان ذلك من أسباب ظهور البويهيين الشيعة الزيدية الذين لم يدخروا وسعاً في الانتقام من خلفاء بني العباس بعد أن سيطروا على معظم أقاليم الخلافة في الشرق[٢] .

هكذا تأثرت العلاقات الإدريسية ـ العباسية بمعطيات صراع أعم بين العباسيين والعلويين في الشرق والمغرب على السواء .

ب ـ العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية :

اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية بطابع العداء الذي ورثه الأغالبة عن بني العباس . إذ كان الأغالبة هم المنفذين للسياسة العباسية في الغرب الإسلامي بأسره . يضاف إلى ذلك أن ظروف تأسيس الإمارة الأغلبية جعلت سياستها الخارجية تتسق مع السياسة العباسية ؛ فكان أعداء الخلافة في الغرب الإسلامي هم أعداء الأغالبة أيضاً .

وسبق إيضاح عجز الخلافة العباسية عن استرداد نفوذها في المغرب ؛ الأمر الذي ساعد على تفاقم أخطار دوله المستقلة بعد اشتداد عودها وطموحها

(١) محمد الطالبي : ٤١١.

(٢) محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، الفصل المعنون « المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي ».

إلى تكوين دول كبرى تضم الشرق والمغرب على السواء .

وأمام تفاقم هذه الأخطار لجأ العباسيون إلى إسناد حكم إفريقية إلى أسرة قوية موالية لهم تشكل خط دفاع أول عن مصر وتسترد نفوذهم المفقود في المغرب والأندلس إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . وهذا يفسر لماذا أسند الرشيد إمرتها إلى إبراهيم بن الأغلب بعد أن منحه صلاحيات واسعة تؤهله لمواجهة أخطار الخصوم في سرعة وحزم . وهو أمر عجزت الخلافة من مركزها البعيد في بغداد عن الاضطلاع به .. تماماً كما فعلت بعد ذلك حين أسندت حكم خراسان إلى الطاهرين لذات الأسباب وذات الأهداف .

وكان إبراهيم بن الأغلب مؤهلاً للقيام بهذا الدور . ففضلاً عن جهود والده ثم جهوده ـ حين كان عاملاً على الزاب ـ في خدمة مخططات العباسيين ؛ كان يعد رجل الخلافة الأقوى في إفريقية التي تمزقتها الاضطرابات الشعوبية والسخائم العنصرية والقبلية .

وسبق أن أثبتنا أن إبراهيم ربط بين طموحات في تولي إمرة إفريقية وبين الولاء للخلافة العباسية عن طريق مؤازرة ولاتها في المغرب وتنفيذ مخططاتها إزاء الأدارسة .

أما عن مصالح الأغالبة في الإرتباط بالخلافة ؛ فترجع إلى طبيعة قيام دولتهم العربية وسط بحر من الأعداء العنصريين والمذهبيين . لذلك كانوا بحاجة إلى عون الخلافة مادياً ومعنوياً . وقد اتسقت هذه المصالح مع مصلحة العباسيين في أن تظل إفريقية بمنأى عن أخطار الدول المستقلة في الغرب الإسلامي ، وأن تكون ثغراً طرفدارياً يحول دون تسرب أطماعها شرقاً . وهذا يدحض مزاعم بعض الدارسين[1] الذين ذهبوا إلى أن سياسة الأغالبة إزاء هذه الدول ـ ومن بينها دولة الأدارسة ـ اتسمت « بعلاقات طيبة أشبه ما تكون بحسن الجوار والتعايش السلمي » . والصواب أن مصالح الأغالبة في الحفاظ على

---

(١) راجع : سعد زغلول عبد الحميد : ٤٥٠ .

استقلال إمارتهم « ارتبطت باستمرارية تنفيذهم للمخطط العباسي إزاء الأدارسة » وغيرهم من القوى التي تطلعت للإستيلاء على إفريقية كخطوة أولى نحو زحفهم إلى الشرق .

لذلك كان العداء بين الأدارسة والأغالبة قدراً محتوماً أملته طبيعة تأسيس كل من الدولتين . لكن هذا العداء لم يترجم قط لنشاط عسكري فعلي نظراً لقصور في قوة كل من الدولتين عن الإطاحة بالأخرى . هذا فضلاً عن منظومة «التوازن» التي حكمت كافة العلاقات بين قوى المغرب آنذاك ؛ بحيث لم يؤد التنافس والصراع بينها قط إلى تغيير خريطة المغرب السياسية . يضاف إلى ذلك تأثير العامل الاقتصادي الكامن في التبادل التجاري بين سائر هذه القوى ؛ الأمر الذي خفف من غلواء الخلافات السياسية والاختلافات الإثنية والمذهبية .

وهذا يفسر لماذا ترجم العداء بين الأغالبة والأدارسة إلى صيغ وصور أخرى كالتآمر والاغتيال وتشجيع المنتزين ؛ فضلاً عن «الحرب النفسية» الكامنة في التلويح بالحرب العسكرية .

فلنحاول رصد مسيرة العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية في ضوء هذه الاعتبارات الأولية .

وننبه إلى أننا لن نسترسل في ذكر ما سبق ذكره بصدد دور إبراهيم بن الأغلب ـ حاكم الزاب ـ في تنفيذ مخططات العباسيين إزاء الأدارسة . وما يعنينا في هذا الصدد أن إبراهيم لم يحظ بحكم إفريقية إلا نتيجة لجهوده في التآمر على اغتيال إدريس الأول ومن بعده المولى راشد . لقد كوفىء على ذلك حين أسند إليه الرشيد الولاية وفق صيغة فريدة تجمع بين خصائص إمارتي الاستكفاء والاستيلاء(١) .

استأنف إبراهيم بن الأغلب بعد ولايته إفريقية عام ١٨٤ هـ سياسته السابقة ضد الأدارسة عندما كان عاملاً على إقليم الزاب . خاصةً وأن نجاحه في

(١) عن مزيد من التفصيلات، راجع : محمود إسماعيل، الأغالبة : ٤٧ وما بعدها.

اغتيال راشد لم يحل دون استمرارية الدولة الإدريسية ، كذا لم يقض على مشروعها التوسعي الذي استهدف إفريقية نفسها .

ذكر بعض المؤرخين[١] أن إبراهيم بن الأغلب شرع في غزو دولة الأدارسة عقب توليه الإمارة ؛ لكن أصحابه نهوه عن ذلك . وفسر بعض[٢] المؤرخين تقاعس إبراهيم عن إتمام الغزو «بكرهه قتال إدريس الثاني» . ونحن نستبعد فكرة الغزو من أساسها نظراً لانشغال إبراهيم بمواجهة التحديات التي واكبت توليه الإمارة . لم يكن بوسعه تجاهل تلك الأخطار ليقوم بمغامرة مجهولة العواقب وراء الحدود .

مع ذلك لا نستبعد إعلان إبراهيم عن هذا الغزو المزمع من قبيل بث الخوف في قلوب خصومه ليتماشى غزواً مضاداً على إفريقية . ولسوف نلاحظ أن التلويح بالحرب «تكتيك» شائع طالما عول عليه الأغالبة حين تتفاقم مشكلاتهم الداخلية ، أو حين يتعاظم خطر الأدارسة فيهدد إفريقية .

استعاض إبراهيم عن الصراع المسلح ؛ بشن حرب دعائية تشكك في نسبة إدريس الثاني لأبيه جرياً على السياسة العباسية في هذا الصدد . يقول ابن خلدون[٣] « صدرت هذه المزاعم من لدن بني العباس وبني الأغلب » .

وحين فشل هذا الأسلوب في تحقيق أهدافه ؛ عول إبراهيم على إثارة المكائد داخل دولة الأدارسة . إذ حرض قبيلة مطفرة للثورة على إدريس الثاني . ومعلوم أن مطفرة اعتنقت المذهب الخارجي الصفري أوائل القرن الثاني الهجري . ثم تصدت لزعامة الثورة الصفرية الأولى ضد بني أمية عام ١٢١ هـ[٤] . ثم كفت عن الثورة حين تقلدت زناتة زعامتها . وقد راودها حلم تأسيس دولة خارجية صفرية شأنها شأن مكناسة التي أقامت دولة المدراريين سنة

(١) ابن الأثير : الكامل : ٥: ١٠٤ ، القاهرة ١٩٥٧ .
(٢) راجع : محمود إسماعيل : الأغالبة : ١١٧ .
(٣) المقدمة : ٢٤ .
(٤) محمود إسماعيل : الخوارج : ٦٤ وما بعدها .

١٤٠ هـ وبورغواطة التي أسست دولتها قبل ذلك . لكن قيام الدولة الإدريسية عام ١٧٢ هـ وأدَ أحلامها . لذلك بايعت إدريس الأول صاغرة . ثم سخطت عليه بعد أن أثخن في الخوارج الصفرية . وبرغم استرضاء إدريس الثاني زعيمها بهلول بن عبد الواحد حتى غدا «صاحب سره»[١] ؛ إلا أنها لم تنسَ ما حل بها على يد والده من قبل . وظلت تترقب الفرص للإنتزاء حتى لاحت حين اتصل بها إبراهيم بن الأغلب الذي « حض زعيمها بهلول على ترك طاعة إدريس إلى طاعة هرون »[٢] . ودارت مراسلات متبادلة بين إبراهيم بن الأغلب وبهلول[٣] أسفرت عن تمرد مطفرة ضد إدريس الثاني . ويبدو أن الأخير نجح في محق التمرد وأثخن في المنتزين. بحيث لم يجد بهلول بداً من الهرب بمن معه من شيوخ مطفرة إلى دولة الأغالبة حيث أنفذهم إبراهيم بن الأغلب إلى بغداد ؛ فرحب الرشيد بمقدمهم[٤] . وضاعت سدى نداءات إدريس الثاني كي يعود زعماء مطفرة إلى المغرب الأقصى[٥] .

---

(١) النوري : نهاية الأرب : ٢٦ : ٢٨ ، مخطوط بدار الكتب المصرية، ابن خلدون: ٤ : ١٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ورد في رسالة من بهلول إلى إبراهيم ما يلي :

لئن كنت تدعوني إلى الحق ناصحاً   لتكشف عن قلبي ضمير خلاف
فعجّل على رد رأي فإنني   أرد الهوى للحق حين يوافي

وجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضت على البهلول ما إن أصابه   تعوض منه طاعة بخلاف
فبايع لهرون الإمام بطاعة   تجده على الإسلام خير مكاف

انظر : ابن الآبار : ٢٠١ .

(٤) نفسه : ٢٠٦ .

(٥) كتب إدريس الثاني إلى البهلول :

أبهلول قد جشمت نفسك خطة   تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره   فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب   وما قد رمى بالكيد كل بلاء
ومن دون ما منتك نفسك خالياً   ومناك إبراهيم خرط قتاد

نفسه : ٢٠١ .

وينم نجاح إبراهيم بن الأغلب في استمالة بهلول المطفري عن حقيقتين هامتين ؛ الأولى : مواصلة إبراهيم بن الأغلب سياسة الكيد للأدارسة تمشياً مع السياسة العباسية . والثانية : ضآلة الجانب المذهبي بالقياس للحافز السياسي ؛ حيث تخلى زعيم مطفرة عن مذهبه الخارجي وتعاون مع الأغالبة والعباسيين السنة نكاية في الأدارسة .

على أن نجاح إدريس الثاني في إحباط تآمر مطفرة ، كذا نجاحه في استمالة قبائل البربر الأخرى حتى « قويت جنوده وأتباعه وعظمت جيوشه وأشياعه »[1] ؛ دفعه إلى الرد بالمثل على تآمر إبراهيم بن الأغلب .

تمثل هذا الرد في تحريض خريش الكندي ـ من زعماء عرب إفريقية ـ للثورة على إبراهيم بن الأغلب ؛ منتهزاً تعاظم ظاهرة الشعوبية في إفريقية آنذاك فضلاً عن الصراع بين السنة والمعتزلة . ويرى أحد الدارسين[2] أن ثورة خريش استهدفت الأغالبة والعباسيين سواء بسواء . وأن يد إدريس الثاني كانت ضالعة في إثارتها ؛ حيث حرض العلويين في إفريقية للتنصل من طاعة الأغالبة . كما يرى في الحركة ثورة زيدية قحة . يقول في هذا الصدد « إن الجو الذي دارت فيه الثورة والقمع الذي تلاها تذكرنا تماماً بالفتن التي اضطلع بها العلويون في الشرق من حين لآخر . تلك التي كان يثيرها حفنة من الأشخاص الذين كانوا يستجيبون لدعوة أحد أفراد ذرية علي أو أحد أعضاءه المتخفين » .

ونحن نوافق الباحث فيما ذهب إليه من تحريض إدريس الثاني للثوار . لكننا نخالفه الرأي بأن الحركة ثورة زيدية كسائر ثورات الزيدية بالشرق . بل نرى أن زعيم الثورة كان معتزلياً استجاب لتحريض إدريس الثاني الذي كان لا يزال على وئام مع المعتزلة داخل دولة . ونظراً لخطورة «الإشكالية» من المفيد أن نثبت نص رسالتين متبادلتين بين خريش الكندي وإبراهيم بن الأغلب ؛ ثم نتناولهما بالدرس والتحليل بغية الكشف عن هوية الثوار .

---

(١) مجهول : تاريخ مدينة فاس : ٢١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر : محمد الطالبي : ١٥٨ .

أما عن رسالة خريش فقد ورد بها ما يلي[1] :

« من خريش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب

أما بعد ـ فإني أقمت على الخروج قبل يومي هذا لأني كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب . فلعمري لقد أراني الله فيكم ما قوى به أهل دعوة الحق عليكم . فلما وليت أنت وعلمت أنهم منقسمون بين خوف منك ورجاء لك ؛ عرفت قلة طمعهم فيك . وإن كان أحد ممن ولي هذا الثغر ممن لا نرى طاعته يستحق أن نرضى بولايته ؛ لكنت أنت ذلك . وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عليه يقول : إذا ولي عليكم عدوكم من أهل الملة فلا تتبعوهم . ولست أطلبك إن خرجت عن الثغر فلا ترد أن تصلى بحربي . وليكن رأيك طلب سلمي والسلام » .

ورد عليه إبراهيم بن الأغلب بقوله[2] :

« من إبراهيم بن الأغلب إلى خريش رأس الضلال . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة وسقطت عليها : استمسكى فإني أريد الطيران . فقالت النخلة : ما شعرت بسقوطك فيكربني طيرانك . فأما انتظارك في الحرب فناء ، فلو لم يبق في المغرب من أهل الطاعة غيري ما وصلت أنت فيمن معك بخلافكم إليه . ولرجوت أن أظفر بطاعتي ونصرة دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . فكيف وعندي من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أني أرجوه أن ينتقم منك على يدي . وأما ما ذكرت عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ؛ فذاك أمر غاب عنك . وإن كان كما ذكرت ؛ فلست منهم . لأن أهل الملة خلافهم خلاف هوى في نقمة على جور . وخلافكم خلاف فرقة دين وشق عصا المسلمين . وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غداً أنا ستتبعكم ، وإن صبرتم أنا سنفنيكم » .

ولنبدأ أولاً بتفنيد القول بزيدية الحركة تأسيساً على استشهاد خريش في

(١) ابن الأبار : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
(٢) نفسه : ٢٣٩ .

رسالته بعبارة لعلي بن أبي طالب . ونلاحظ بأن خريش لو كان زيدياً لأردف شعارات الشيعة المألوفة باسم علي ، لكنه اقتصر على القول «برضى الله عليه». كما أن الاستشهاد بعبارة علي لا تنفي أن خريش كان معتزلياً. ذلك أن واصل بن عطاء كان من ورثة علم علي كما كان أستاذاً لزيد بن علي زين العابدين مؤسس الفرقة الزيدية .

أما القرائن على اعتزالية الحركة ؛ فنقف عليها من طبيعة الحوار الجدلي السجالي الذي اشتهر به المعتزلة والذي يتغير تماماً في رسالة خريش. كذا ما تحفل به الرسالة من الإلحاح على «العدل» و «دعوة أهل الحق» ، وهو مبدأ اعتزالي قح حتى أن المعتزلة عرفوا «بالعدلية» و «بأهل العدل والتوحيد» . كذلك تفصح الرسالة عن رأي المعتزلة في الثورة من اشتراط الخروج تحت راية إمام عادل واختيار التوقيت المناسب ؛ وهو ما يظهر بوضوح في مستهل الرسالة . أما خاتمتها فتظهر رأي المعتزلة في الحرب والسلم حيث ربط خريش بين خروج إبراهيم من إفريقية وبين الكف عن قتاله .

أما رسالة إبراهيم بن الأغلب ؛ فتنطوي خاتمتها على ما يفيد وجود صلة بين الثوار وبين دولة الأدارسة . يظهر ذلك في قول إبراهيم « إن لقيناكم غداً أنا سنتبعكم » حتى داخل الدولة الإدريسية .

هذا مما تفصح عنه فحوى الرسالتين من دلالات . ولا نعدم قرائن أخرى على اعتزالية حركة خريش . منها كون خريش من الأرستقراطية العربية في إفريقية. ومعلوم أن معتزلة إفريقية كانوا ينتمون إلى هذه الطبقة. وإذا ما علمنا أن أنصار خريش بلغوا عشرة آلاف ؛ استحال القول بأنهم زيدية لأننا نعرف أن الدعوة الزيدية لم تحرز نجاحاً يذكر في إفريقية ، على عكس مذهب المعتزلة الذي انتشر فيها انتشاراً واسعاً كما أثبتنا في دراسة سابقه[1] . وأخيراً فإن ما

---

(١) راجع : محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ، الفصل المعنون « المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي ».

جرى من رفع الثوار شعار المعاداة لبني العباس[1] ؛ يعد رد فعل لما حل بالمعتزلة في العراق من محسن في عهد الرشيد الذي طردهم من بغداد وبدد حلقاتهم في مساجدها[2] .

على كل حال ـ كانت ثورة خريش الكندي في إفريقية نتيجة تحريض إدريس الثاني كرد مباشر على تحريض إبراهيم بن الأغلب قبيلة مطفرة ضده .

أما عن مصير الثوار ؛ فقد أثخن فيهم إبراهيم قتلاً وأسراً وطرداً من إفريقية . وبديهي أن تتجه أعداد غفيرة منهم إلى دولة الأدارسة . وبديهي أيضاً أن يرحب إدريس الثاني بمقدمهم . إذ نعلم أنه أسكنهم عدوة القرويين بفاس سنة ١٩٢ هـ . كما حلت وفوداً أخرى من الأندلس أسكنهم إدريس عدوة الأندلسيين . ونظراً لخبرة القرويين بفنون القتال وخبرة الأندلسيين بأمور العمران ؛ فقد أدت هاتين الهجرتين إلى تعاظم قوة الدولة الإدريسية .

ولم يجد إبراهيم بن الأغلب مناصاً من التلويح ـ كعادته ـ بغزوها . ويخطىء بعض المؤرخين[3] الذين ذهبوا إلى أن إدريس الثاني كاتب إبراهيم بن الأغلب يستعطفه ليكف عن غزو دولته مذكراً إياه بقرابته من الرسول ﷺ . كما يخطىء البعض[4] الآخر ممن ذكروا أن إبراهيم استجاب لإدريس «فكف عنه» ، «ولم تجر بينهما حرب»[5] . والصواب ما ذكره ابن خلدون[6] بأن إبراهيم « صالح إدريس وكف عن مدافعته لا لشيء إلا لعجزه » . وقد أخذ جوتييه[7] برأي ابن خلدون تأسيساً على تعاظم قوة إدريس الثاني بعد قدوم

(١) محمود إسماعيل : الأغالبة : ٣٣ .

(٢) محمود إسماعيل : الحركات السرية ، نفس المقال .

(٣) راجع : ابن الآبار : ٢٠٢ .

(٤) ابن الأثير : ٥ : ١٠٤ .

(٥) النويري : ٢٦ : ٢٨ .

(٦) العبر : ٤ : ١٤ .

(٧) - . Les Siecles obscurs, p. 276.

العرب الوافدين من إفريقية والأندلس . كذلك فعل فندرهيدن[٥] حين أشار إلى أن إدريس الثاني ما كان بحاجة لاستثارة عطف الأغالبة .

وربما كان فورنل[١] أكثر إنصافاً حين ذهب إلى أن أحد الخصمين ما كان بوسعه أن ينال من الآخر[٢] . وعلى ذلك يمكن الجزم بأن إبراهيم هدد إدريس بالغزو لا لشيء إلا لتحاشي غزو إدريسي مضاد .

وليس أدل على «عدم وقوع مصالحة» بين الطرفين من استئناف إبراهيم بن الأغلب سياسة تدبير المكائد ضد إدريس الثاني . ذلك أن انحياز إدريس إلى العناصر العربية التي أسند إليها المناصب العليا في دولته[٣] ؛ أثار سخط قبائل البربر وخاصةً أوربة . لذلك لم يدخر إبراهيم وسعاً في تحريضها على الثورة . وبرغم اتفاق المؤرخين[٤] حول دور إبراهيم في تحريض إسحق الأوربي ضد إدريس الثاني ؛ لم يذكروا شيئاً عن أسبابه ولا عن كيفية وقوعه اللهم إلا أن « إدريس الثاني بطش بأوربة وأقدم على قتل زعيمها »[٥] .

---

(١) La Berberie Onientale. p. 262.

(٢) Les Berbers, Vol. I, Paris, 1875, p. 260.

(٣) أما ما أورده ابن الآبار من أشعار دلل بها البعض على ضعف موقف إدريس الثاني ؛ نرى أن مضمونها بوجه عام يستفاد منه العكس ؛ إذ تفصح عن دعوة إدريس الثاني إبراهيم لا عتناق مذهبه . وهاك نفس هذه الأبيات :

اذكر أبيراهيم حق محمد وعترته — والحق غير مقول
وادعوه للأمر الذي فيه رشده — وما هو لو لا رأيه بجهول
فإن آثر الدنيا فإن أمامه — زلازل يوم للعقاب طويل

انظر : ابن الآبار : ٢٠٢ .

(٤) ابن خلدون : ٤ : ٧ ، مجهول : تاريخ مدينة فاس : ٢١ ،

Marcais : Op. Cit . p. 1472 .

(٥) البكري : ١٢٣ ، Fournel : Op. Cit p. 461

(٦) البكري : ١٢٣ .

ويمكن الكشف عن أسباب سخط أوربة وكيفية تآمرها مع إبراهيم إذا أدركنا دور أوربة الهام في قيام دولة الأدارسة . ومع ذلك لم تتحقق طموحاتها كعصبية مؤسسة ؛ إذا استعان إدريس الأول بقبائل زناتة لتحجيم نفوذها . كما أسس إدريس الأول مدينة فاس واتخذها إدريس الثاني عاصمة بدلاً من وليلى جرياً على نفس السياسة . وبديهي أن تزداد أوربة سخطاً على إدريس الثاني بعد أن حرمها من المناصب الهامة وأوكلها إلى العرب الوافدين .

انتهز إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة وعول على التدخل في الشؤون الداخلية لدولة الأدارسة ؛ خاصةً بعد أن فرغ من ثورات العرب داخل إفريقية[١] . وإذا كنا نخالف فورنل[٢] فيما ذهب إليه من أن إبراهيم استهدف عودة عرب عروة القرويين إلى إفريقية ؛ فلا أقل من التسليم برغبته في إثارة السخائم العصبية بين العرب والبربر داخل الدولة الإدريسية لتشغل إدريس الثاني عن التفكير في غزو إفريقية .

ولم يعدم إبراهيم وسيلة للاتصال بزعيم أوربة وتأليبه ضد عرب فاس والأدارسة . ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن هذا التآمر؛ فهم بردع أوربة بأن قتل زعيمها .

تنفس الأدارسة الصعداء بموت إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ . إذ خلفه ابنه أبو العباس الذي شغل بمواجهة بني رستم في طرابلس وأهوازها[٣] . وانتهز إدريس الثاني هذه الظروف لتوطيد دعائم حكمه الذي زعزعه خطر السخائم العصبية داخل دولته . وبالفعل نجح في استعادة ولاء أوربة[٤] . وقاد جيوشه لتأكيد نفوذه في بلاد المصامدة والهيمنة على خطوط التجارة مع

---

(١) محمد الطالبي : ٤١٢ .

(٢) Les Berbers, Vol. I, p.497.

(٣) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٨٧ ومابعدها .

(٤) Vonderheyden: Op. Cit. p. 263.

السودان . كما نجح في دعم سيادته على تلمسان بعد أن أثخن في الخوارج الإباضية والصفرية بنواحيها[1] .

وكان بوسع إدريس إحياء مشروع غزو إفريقية عن طريق تلمسان ؛ لكن أيلولة حكم إفريقية إلى أمير قوي هو زيادة الله الأول أحبط المشروع . وقد أخطأ فندرهيدن[2] حين ذكر أن الأمير الأغلبي لم يعبأ بما يدور في تخوم دولته الغربية . ذلك أن زيادة الله الأغلبي رغم مشاغله الداخلية في مواجهة ثورات الجند من جديد ، ورغم تذؤب الخطر البيزنطي في صقلية ، فضلاً عن تكدر علاقته - إلى حين - ببني العباس ؛ هاله ما وصل إليه حال إدريس الثاني بعد أن وطد نفوذه داخل دولته خصوصاً في تلمسان وأهوازها . يقول ابن خلدون[3] أنه « بعث إلى إدريس يأمره بعدم تجاوز حد التخوم » على الرغم من أن التوسع الإدريسي في هذه النواحي جرى على حساب بني رستم .

ويبدو أن تطاول إدريس الثاني كان من أسباب إقدام زيادة الله الأغلبي على تحسين علاقته بالخليفة المأمون العباسي بعد أن شابها الكدر حين أزمع المأمون الانتقاص من سلطات الأمير الأغلبي . ويبدو كذلك أن المأمون تاب إلى رشده حين لوح له الأمير الأغلبي بتعاظم أمر إدريس[4] .

أصبح بوسع زيادة الله الأول مواصلة سياسة أبيه إبراهيم في الكيد للأدارسة بعد قضائه على ثورات الجند في إفريقية وإنفاذ حملة على صقلية سنة ٢١٢ هـ لوقف الخطر البيزنطي وعودة علاقته الودية مع بني العباس . لذلك

---

(١) راجع : العلاقات الإدريسية - الرستمية .

(٢) La Berberie Orientale . p. 263 .

(٣) المقدمة : ٥٢ .

(٤) يقول ابن خلدون : « درج الأغالبة انفاذ سكة إدريس في تحفهم وهداياهم الى بني العباس تهويلاً باشتداد شوكته وتعظيماً لما دفعوا إليه من مطالبته » .
انظر : المقدمة : ٢٥ .

أخطأ فندرهيدن[1] حين ذهب إلى أن زيادة الله كان يخشى إدريس الثاني ويعمل لخطره ألف حساب .

ومهمـا كان الأمـر ؛ فقد أقـدم الأمير الأغلبي على حيـك مؤامـرة انتهت باغتيال إدريس الثاني ؛ رغم شكوك بعض الـدارسين[2] الذين ذهبـوا إلى « أن رواية التآمر تلك انعكاس لمشاغل خيال قـلق مرتاب مشحون بالذكرى القاسية عن مصير إدريس الأول » .

ونحن لا نجد مبرراً لهذا الشك لعدة أسباب : أولها : أن أسلوب الاغتيال السياسي أسلوب شائع في العلاقات الأغلبية الإدريسيـة . فقد سبق أن شـارك إبراهيم بن الأغلب في مؤامرتي اغتيال إدريس الأول ومولاه راشـد . وثانيهـا : إجماع المؤرخين القدامى على صحـة واقعة الاغتيـال . يقول ابن الآبـار[3] : « إحتال زيادة الله على إدريس حتى اغتاله » . ويؤكد ابن عذاري[4] أن « إدريس الثاني مات مسموماً » .

وتلوذ المصـادر بالصمت عن كيفيـة تدبيـر المؤامرة . ومن المـرجـح أن زيادة الله بن الأغلب أوكل إلى معتزلة المغـرب الأقصى الاضطلاع بـالمهمة ؛ خاصةً وأن الاعتزال كان آنذاك هو المذهب الرسمي في إفريقية الأغلبية .

أمـا عن تاريـخ الأغتيال ؛ فمن المؤرخين من حـدده بعام ٢١٣ هـ[5] ، ومنهم من رجح عام ٢١٤ هـ[6] . ونحن نرجح التاريخ الثاني استناداً إلى وجود عملة تحمل إسم إدريس الثاني ضربت عام ٢١٤ هـ[7] .

---

(١) La Berberie Orientale. p. 264.

(٢) انظر : محمد الطالبي : ٤١٠ .

(٣) الحلة السيراء : ٢٠٠ .

(٤) البيان المغرب : ١ : ٢٩٩ .

(٥) ابن عـذاري : ١ : ٢١١ ، ابن خلدون : ٤ : ٢٧ ، ابن الآبـار : ٢٠٠ ، البكـري : ١٢٣ .

(٦) انظر ، ابن الأثير : ٥ : ٢١٩ .

(٧) اكتشف ليفي بروفنسال عملة باسم إدريس الثاني ضربت عام ٢١٤ هـ. =

باغتيال إدريس الثاني وتقسيم دولته بين أبنائه ، أخذت دولة الأدارسة طريقها إلى التداعي والإنهيار . لذلك لم يعول الأغالبة على مناوءتها[1] نتيجة عجزها عن تشكيل أدنى خطر على إفريقية . وشغل الأغالبة بالفتوحات في صقلية وجنوبي إيطاليا ، كما شغل العباسيون بالصراع مع العسكر التركي ثم مع سلاطين بني بويه . وهذا يعني انتفاء الظروف التي أفرزت سياسة العداء .

ليس أدل على ذلك من تقاعس الأدارسة عن مناصرة قبائل زناتة في سطيف وبلزمه حين استعانت بهم للخلاص من بطش الأميرين الأغلبيين أبي الغرانيق وإبراهيم بن أحمد[2] . وبالمثل أحجم الأغالبة عن غزو تلمسان التي استقل بها آل سليمان رغم ضعفهم واستكانتهم[3] .

لقد ظهر خطر جديد هدد الدولتين الأغلبية والإدريسية ؛ ووضع حداً لما كان بينهما من إحن ومحن ؛ حيث قضى على الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ وأسقط أدارسة فاس سنة ٣٠٧ هـ .

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية بطابع العداء الذي يصل إلى حد امتشاق الحسام بقدر ما اقتصر على التآمر وتدبير المكائد والاغتيالات .

= راجع : محمد الطالبي : ٤١١ ، الحاشية .

(١) Provençal : L'Histoire de L'Espagne Musulmane, Vol. I, Alger, 1944, p. 381.

Vonderheyden : Op. Cit. p. 264.

(٢) ابن عذاري : ١ : ١٦٠ ، .

(٣) Ibid : 265.



الفصل الثاني

سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج

شهدت بلاد المغرب قيام دول خارجية ثلاث هي دولتي بورغواطة وبني مدرار الصفريتين بالمغرب الأقصى ، ودولة بني رستم الإباضية بالمغرب الأوسط . وكان ظهور هذه الدول ـ الأولى سنة ١٢٣ هـ والثانية سنة ١٤٠ هـ والثالثة سنة ١٦٢ هـ ـ تتويجاً لدعوات سرية أعقبتها حركات ثورية ضد الأمويين ومن بعدهم العباسيين . وسقطت دولتي بني مدرار وبني رستم على يد الفاطميين سنة ٢٩٧ هـ، أما بورغواطة فقد عمرت إلى عصر الموحدين .

وبرغم وحدة ظروف نشأة هذه الدول ودولة الأدارسة ؛ حيث قامت جميعاً على أنقاض نفوذ الخلافة الشرقية ، وبرغم وحدة المصير ؛ تعرضت جميعاً لأخطار العباسيين والأغالبة ؛ اتسمت علاقة الأدارسة بها بطابع العداء .

وبرغم إلحاح الدارسين على الخلاف المذهبي في تفسير هذا العداء ؛ نرى في العوامل الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية الدافع الحقيقي لصياغته وتأصيله . ذلك أن العلاقات الدولية كانت ولا تزال تخضع لعامل المصلحة وليس للدين أو المذهب أو رابطة الدم .

إن نظرة صحيحة وشاملة لتحديد أبعاد الصراع الإدريسي ـ الخارجي يجب أن تضع في الاعتبار قيام دولة الأدارسة وتوسعها على حساب تلك الدول الخارجية .

كما أن معطيات الجغرافيا التي حددت موضع دولة الأدارسة بين تلك

الـدول الضعيفة التي أحـاطت بهـا من الشـرق والمغـرب والجنـوب ، جعلت الصدام بين الطرفين لا مندوحة عنه . ذلك الصدام الذي اتخـذ طابـع الصراع العسكري ـ على عكس علاقة الأدارسة بالعباسيين والأغالبة وأمويي الأندلس ـ الذي أمسك فيه الأدارسة بزمام المبادرة في الغالب الأعم واكتفت دول الخوارج بـردود الأفعال . لـذلك كـان التوسـع والغلبة لصـالـح الأدارسـة على حسـاب جيرانهم .

وتأسيساً على ذلك ، يمكن الجزم بـالدوافـع الاقتصـاديـة والاجتمـاعيـة والاستراتيجية باعتبارها حجر الزاوية في صياغة السياسة الإدريسية التوسعية .

فيمـا يتعلق بالحـافز الاقتصـادي ، نلاحظ أن المنـاطق التي استهـدفهـا التوسع الإدريسي كانت إما سهـولاً غنية بـالإنتاج الـزراعي والحيواني كسهـول تامسنا البورغواطية . وإما مناطق ذات ثروات معدنية كإقليم درعة الغني بالفضة التابع لبني مـدرار . وإما مـدناً ذات أهميـة تجاريـة كتلمسان ومـوانىء المغرب الأوسط على البحر المتوسط ذات الصلة الـوثيقة بتجـارة المشرق والأنـدلس . وكانت تابعة لبني رستم ، أو مدنـاً وطرقـاً ومنافـذ صحراويـة على صلة بتجارة السـودان كطريق سجحاسة في دولة بني مـدرار وطـريق تـارودانت في الـدولـة البورغواطية . لـم يكن جزافاً أن ييمم الأدارسة حمـلاتهم صوب هـذه النواحي لغزوها وانتزاعها من جيرانهم الخوارج .

أما العامل الاجتماعي ؛ فيمكن الكشف عنه من خلال فهم طبيعة البنيات القبلية باعتبارها النمط السائد في مغرب القرون الوسطى . ولسوف تعكس هذه البنى تـأثيراتهـا على ما جـرى من صراع بين الأدارسـة وجيرانهم ؛ إذ حـرص الأدارسة على الهيمنة على المناطق الغاصة بالسكان كتلمسان وأهـوازها حيث مضارب زناتة من مغراوة وبني يغرن . كذا أنفذوا العديد من الحملات نحو بلاد المصامدة . لموازنة قبائلها بالقبائل الزناتية وقبيلة أوروبّة .

كما ألحت المسألة القبلية ومزجت وجودها وأفرزت آثارها على السيـاسة الخـارجية الإدريسيـة إزاء جيرانهـا الخوارج ؛ خـاصة وأن الكثيـر من القبائـل

المقيمة في دولة الأدارسة كان لها امتداداتها في دول الخوارج المجاورة . وفي هذا الصدد لعبت القبائل البدوية ـ التي لم تعبأ بالحدود السياسية ـ دوراً في إثارة المشكلات بين الأدارسة وجيرانهم خصوصاً بعد اقتران العصبية بالمذهبية ، وارتباطهما معاً بالدافع الإقتصادي . إذ نعلم أن أقليات مذهبية شتى ؛ سنية واعتزالية وخارجية عاشت في كنف الأدارسة . وكانت هذه الأقليات ترسل زكاة أموالها لشيوخها ورؤساء طوائفها في الدول الأخرى المجاورة . فالخوارج الصفرية في دولة الأدارسة حرصوا على موالاة بني مدرار والبورغواطيين وودوا لو تنصلوا من تبعيتهم للأدارسة وعاشوا في كنف المدراريين والبورغواطيين .

كما عاشت أقليات زيدية واعتزالية في كنف الدولة الرستمية وسعت للانضمام للأدارسة . وبالمثل ضمت دولة الأدارسة بعد استيلائها على تلمسان عناصر زناتية إباضية طالما أثارت المتاعب في وجه الأدارسة لِصالح بني رستم . لذلك حق لأحد الدارسين[1] النابهين القول بأن تلك البنى الإثنية الطائفية شكلت « حوزات متقطعة » شكلت حجر عثرة أمام هيمنة « المخزن » في مغرب القرون الوسطى .

وبالمثل شكلت هجرات القبائل بين تلك الدول دون حساب للحدود السياسية مشكلات كبرى أدت إلى إثارة الصراع العسكري المسلح خاصة في مناطق التخوم . وحق لذات الدارس[2] القول بأن الحدود بين دولة الأدارسة وبين جيرانها كانت «حدود مائعة جداً» . ولطالما انتهك الأدارسة أنفسهم هذه الحدود خاصة في المناطق الاستراتيجية كتلمسان ومضيق تازا وأعالي شلف ، باعتبارها منافذ هامة تخدم المشروع السياسي الإدريسي الطموح في التوسع شرقاً .

ولعل هذا المشروع كان من أسباب تكوين محاور سياسية في المغرب الإسلامي ، أحدهما عباسي ـ أغلبي للحيلولة دون توسع الأدارسة شرقاً . والآخر أموي أندلسي رستمي مدراري بورغواطي للحيلولة دون توسع الأدارسة

(١) محمد الطالبي : ٣٨٩ .

(٢) نفسه : ٣٨٦ .

شمالاً والأغالبة غرباً . وهذا التمحور في حد ذاته كفيل بالكشف عن دور العامل الاستراتيجي في صياغة سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج .

على أن الفصل بين هذه الدوافع جميعاً غير ذي موضوع ، لأنها تتضافر جمياً على صياغة أحداث الحقبة وتشكيل وقائعها . لذلك يمكن دمجها جميعاً في مصطلح واحد هو « المعطيات الجيو- بوليتيقية » .

في ضوء هذه المعطيات يمكن أن نفسر لماذا لم يتوسع الأدارسة على حساب الأغالبة أو أمويي الأندلس ؟ ولماذا توجه كل نشاطهم العسكري صوب مناطق ومنافذ وموانىء ومدن وطرق التجارة شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً [1] ؟ وأخيراً لماذا تم كل ذلك على حساب دول الخوارج وحدها ؟ ذلك ما نجيب عليه بالتفصيل في ثنايا العرض التالي .

أ ـ العلاقات الإدريسية ـ البورغواطية :

قامت دولة بورغواطة على أرض إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى سنة ١٢٣ هـ: استناداً إلى عصبية من قبائل بورغواطة المصمودية ومذهب ديني هو المذهب الخارجي الصفري . ومن ثم تسقط دعاوى المؤرخين الذين شككوا في نسب العصبية فردوه إلى اليهود وفي عقيدتها التي قالوا إنها ذات طابع هرطقي [2] .

اتسمت سياسة الأدارسة إزاء جيرانهم البورغواطيين بالعداء السافر . وقد وصل هذا العداء إلى حد اندلاع حروب بين الطرفين كان الظفر فيها للأدارسة الأوائل والبورغواطيين الأواخر . ولا يرجع العداء إلى الاختلاف المذهبي بقدر ما يرجع إلى أطماع الأدارسة في مقدرات إقليم تامسنا الاقتصادية : تلك

---

(١) راجع : موريس لومبار : الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي : ص ٦٢ وما بعدها ، فصله من كتاب : بحوث في التاريخ الاقتصادي . القاهرة ١٩٦١ .

(٢) راجع : محمود إسماعيل : مغربيات : ١٥ وما بعدها.

المقدرات التي جعلت بورغواطة ـ كما ذكر ابن حوقل ـ[١] . « مستقلة بنفسها عن الحاجة » . ففضلاً عن شهرة إقليم تامسنا بالإنتاج الزراعي والحيواني الوفير وامتداد سواحلها على المحيط الأطلسي الذي أهل البورغواطيين لاحتراف الصيد البحري . تحكم موقع الدولة في الطريق الغربي إلى تجارة السودان ؛ وهو طريق تارودانت . فإذا أضيف إلى ذلك الصلات الودية بين بورغواطة وبين أمويي الأندلس أعداء الأدارسة[٢] ؛ أدركنا الأسباب الموضوعية التي حفزت إلى اتسام العلاقات بين الأدارسة والبورغواطيين بالعداء السافر . ولعل هذه الأسباب الاقتصادية كانت من وراء تعرض الدولة البورغواطية طوال تاريخها لأطماع القوى الخارجية . وهي حقيقة أكدها ابن خلدون[٣] حين قال : « وكان لملوك العدوتين في غزو بورغواطة آثار عظيمة » .

ومن هنا تسقط دعاوى المؤرخين الذين فسروا حملات الأدارسة على ديار بورغواطة تفسيراً دينياً : تأسيساً على أن بورغواطة « كانت على دين النصرانية واليهودية والإسلام بها قليل »[٤] . وهو إدعاء يفنده اعتناق البورغواطيين الإسلام منذ فتح موسى بن نصير بلادهم . كذا اعتناقهم المذهب الخارجي الصفري منذ أوائل القرن الثاني الهجري .

كما تسقط أيضاً الدعاوى القائلة[٥] بأن حملة إدريس الأول نجحت في ضم إقليم تامسنا ، حيث تم « فتح معاقلها وإسلام جميع أهلها » . وقد فسر أحد الدارسين المحدثين[٦] هذا الادعاء بأن صاحب ـ ابن أبي زرع ـ أراد بإضفائه طابعاً دينياً على حملة إدريس الأول أن يمجده ويفخم أعماله » .

والثابت أن هذه الحملة لم تحقق أغراضها نتيجة استئساد بورغواطة في

(١) صورة الأرض : ٨٣.
(٢) محمود إسماعيل : المرجع السابق : ٣٤، ٣٥.
(٣) العبر : ٦ : ٤٣٢.
(٤) ابن أبي زرع : ٢٠ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .
(٦) راجع : سعد زغلول عبد الحميد : ٤١٩ .

الدفاع عن استقلالها . وهذا يفسر لماذا أعاد إدريس الثاني الكرة حيث « دارت وقائع عظيمة »[١] لم تسفر كذلك عن سقوط دولة بورغواطة .

وهذا راجع أيضاً إلى ما عرف به الخوارج الصغرية من فروسية وبلاء في كافة حروبهم في الشرق والمغرب على السواء[٢] . هذا بالإضافة إلى ما كفلته الطبيعة الجغرافية من حماية لديار بورغواطة أهلت دولتها لأن تعمر طويلاً على خلاف دول المغرب المستقلة المعاصرة التي سقطت على يد الفاطميين أواخر القرن الثالث الهجري .

ومع ذلك أسفرت حملة إدريس الثاني عن نجاح محدود؛ إذ اقتطعت بعض المدن الهامة ـ كنفيس ـ وفتحت للأدارسة باباً للوصول إلى تجارة السودان . كما نجحت في تحويل بعض قبائل المصامدة من الولاء لبورغواطة إلى التبعية للأدارسة[٣] .

وفي عهد محمد بن إدريس توجهت حملة كبرى إلى ديار بورغواطة نجحت بالفعل في تحقيق أغراضها ، إذ أسفرت عن سقوط دولة بورغواطة إلى حين؛ على أثر معركة فاصلة دارت عام ٢٢٠ هـ. مصداق ذلك حدوث فترة شغور في التاريخ البورغواطي استمرت قرابة خمسين عاماً خضع إقليم تامسنا خلالها لولاية عيسى بن إدريس الذي حكمها باسم أخير محمد في فاس[٤] . ثم آل نفس الإقليم إلى عمر بن إدريس حين دب الشقاق بين الأخوين عيسى ومحمد وتدخل عمر في النزاع لصالح أخيه ونجح في هزيمة عيسى فأسند إليه محمد حكم تامسنا مكافأة له على حسن صنيعه[٥] .

إلا أن البوغرواطيين استردوا دولتهم منتهزين ضعف الدولة الإدريسية بعد

---

(١) ابن الخطيب : ٣ : ٣٢.

(٢) محمود إسماعيل : الخوارج : ٦٢ وما بعدها .

(٣) إبراهيم : العبيدي : البورغواطيون في المغرب : ٤٤ ، مراكش ١٩٨٣ .

(٤) ابن الخطيب : ٣: ٢٠٥ .

(٥) ابن خلدون : ٤ : ٢٨..

عهد محمد بن إدريس ، فتمكن أبو عفير البورغواطي من هزيمة الأدارسة سنة ٢٧١ هـ وأعاد إحياء الدولة البروغواطية التي حكمها آل بيته حتى سقطت في عصر الموحدين[١] .

وإذ اتخذ موقف الأدارسة الأوائل في علاقاتهم مع بروغواطة طابع الهجوم ولاذت بورغواطة بالدفاع ، فلم يلبث الحال أن تغير وأصبحت دولة الأدارسة المجزأة هدفاً لأطماع البورغواطيين . ولا أدل على ذلك من أن أبي عفير . نجح في توسيع نفوذه على حساب الأدارسة وتمكن من توحيد المصامدة وإخضاعهم لسلطانه[٢] . فكثير من القبائل التي خضعت للأدارسة إبان قوتهم تحول ولاؤها إلى بورغواطة بعد انهيار الأدارسة . من هذه القبائل جراوة وزواغة ومطفرة[٣] . فضلاً عن بعض بطون زناتة وغيرها[٤] .

وبالمثل كان الحافز الاقتصادي من وراء التوسع البورغواطي على حساب الأدارسة ، إذ نجح أبو عفير في الاستيلاء على بعض المواضع الفنية بمعدن الفضة مثل بهت التي شهدت معركة ضارية بين البورغواطيين والأدارسة[٥] . وبديهي أن تعود القبائل في هذه المواضع إلى المذهب الخارجي الصفري التي أرغمت على التخلي عنه إبان حقبة السيطرة الإدريسية[٦] .

وعلى أثر الحملات الفاطمية على المغرب الأقصى وانسحاب الأدارسة في الشمال حيث تقوقعوا في حجر النسر ؛ عول البورغواطيون على انتهاز الفرصة ؛ فمدوا نفوذهم من بهت إلى تادلا وجبال فازاز بالإضافة إلى سهول تامسنا . كما تحرشوا بمنطقة سبو منتهزين انسحاب الأدارسة منها[٧] . وحسبنا

---

(١) محمود إسماعيل : مغربيات : ١٥ .
(٢) ابن حوقل : ٨٣ ، Gautier : Op. Cit. p.14.
(٣) ابن خلدون : ٦ : ٤٢٨ .
(٤) البكري : ١٤١ .
(٥) عبد الكريم بيصعين : ٦١.
(٦) محمود إسماعيل : مغربيات : ٢٩ .
(٧) البكري : ١٤٠ ، ١٤١ .

تدليلاً على ذلك من ذكر أسماء القبائل التي خضعت لبورغواطة آنذاك وهي « بورغواطة وجراوة وزغاوة وزواغة والبرانس ومطفرة وبنو يوزع وبنو دمر ومطماطة وبنو واكسست وبنو تاسليت » وكلها عادت إلى اعتناق المذهب الصفري . أما القبائل التي والت بورغواطة ولم تدخل في مذهبها فهي « زناتة الجبال وبنو تليت وبنو وانسيت وبنو تانيت »(١) .

على أن العداء السياسي بين الأدارسة وبورغواطة لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية بين فاس وشاله . وفي ذلك يقول ابن حوقل(٢) « وكان أهل فاس والبصرة يغزونهم في بعض الأوقات ويسالونهم ويجلبون إليهم التجارات على ما يرويه ولاتهم » . ونعتقد أن اليهود لعبوا دوراً أساسياً في إحكام الوشائج الاقتصادية بين الأدارسة وجيرانهم الخوارج وخاصة البورغواطيين . وحق لجويتين(٣) الحكم بأن يهود المغرب الأقصى أسهموا في تخفيف حدة الصراعات السياسية والإثنية والطائفية ـ التي شجرت بين الكيانات السياسية آنذاك .

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ البورغواطية بالعداء السافر الذي ترجم إلى صراعات عسكرية دامية كان النصر فيها للأدارسة أولاً وللبورغواطيين أخيراً .

ب ـ العلاقات الإدريسية ـ المدرارية :

اتسمت العلاقات الإدريسية ـ المدرارية بطابع العداء الذي اتخذ صورة تدبير المؤامرات أولاً ثم تحول إلى صراع عسكري أسفر عن توسع الأدارسة على حساب بني مدرار أخيراً . ولا يرجع هذا العداء إلى الاختلاف المذهبي بين الأدارسة الزيدية والمدرارية الصغرية ، بقدر ما تأصل نتيجة أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية .

---

(١) مجهول : الاستبصار : ٢٠٠ .

(٢) صورة الأرض : ٨٣.

(٣) Les Siecles obscurs, p.9 - 14.

فسياسياً ، صادق المدراريون أعداء الأدارسة من البورغواطية وبني رستم وبني أمية بالأندلس . كما أن قيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى تم على حساب الخوارج الصفرية(١) . وبرغم جهود الأدارسة في محاولة محو المذهب الصفري والقضاء على نفوذ القبائل التي اعتنقته كمديونة ومكناسة ومطفرة : ظلت جماعات من الصفرية تقيم بدولة الأدارسة وإن كان ولاؤها السياسي لبني مدرار . وحسبنا أنها كانت تدفع زكاة أموالها لشيوخ الصفرية في سجلماسة .

فإذا أضيف إلى ذلك أطماع الأدارسة في ذهب سجلماسة وفضة درعة ؛ أدركنا الحافز الرئيس على الصراع الإدريسي ـ المدراري . ذلك الصراع الذي أججه وجود قبائل من مغراوة وبني يغرن ومكناسة كانت تضرب في كل من الدولتين وتنتقل بينهما ضاربة عرض الحائط بالحدود السياسية المائعة .

وقد نجح الأدارسة في تجنيد بعضها ضد بني مدرار سواء في إثارة المشكلات داخل دولتهم أو إغراء بني جلدتها في الهجرة والإقامة بالدولة الإدريسية . لذلك تسقط دعاوى بعض الدارسين(٢) الذين وسموا العلاقات الإدريسية ـ المدرارية « بطابع المسألة وحسن الجوار ». صحيح أن الصراع العسكري لم يسفر عن إسقاط أي من الدولتين ؛ لكن تمخض عن اقتطاع اقاليم مدرارية جرى ضمها للدولة الإدريسية .

ويبدو أن الطبيعة الجغرافية حالت دون قضاء الأدارسة الأقوياء على جيرانهم الضعفاء . إذ اعتصم المدراريون بواحتهم العقبة في أقصى الصحراء واحتموا بسلاسل الجبال الفاصلة بينهم وبين الأدارسة(٣) . ومع ذلك وجدت مناطق مدرارية دون حماية طبيعية شهدت صراعاً مريراً أسفر عن اقتطاع الأدارسة أقاليم ومدناً وحصوناً مدرارية هامة .

وإذ قنع الأدارسة بهذه المكاسب ؛ لم يجدوا غضاضة في استمرار التبادل

---

(١) محمود إسماعيل : الخوارج : ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر : حسن عبد العواد : قيام دولة الأدارسة : ٢٥٣ ، رسالة ماجستير مخطوطة .

(٣) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٣٠ .

التجاري بين فاس وسجلماسة ؛ حيث كانت القوافل تروح جيئة وذهاباً بين الدولتين في أمان وسلام[١] .

وإذا كان مؤرخاً مثل جورج مارسية[٢] يرى أن سياسه الأدارسة استهدفت « استئصال شأفة صفرية سجلماسة »؛ فنحن نخالف الرأي تأسيساً على أن المشروع الإدريسي السياسي التوسعي استهدف إفريقية ومنها إلى مصر في المحل الأول .

وبالمثل ما كان من الممكن لدولة المدراريين في أقصى الصحراء أن تنال من الأدارسة الأقوياء . هذا فضلاً عن أن جل نشاطهم انصرف بالدرجة الأولى إلى التجارة عبر الصحراء . وعلى ذلك يمكن القول بأن الصراع الإدريسي - المدراري تمحور حول سياسة إدريسية هجومية توسعية قوبلت من جانب بني مدرار بالصمت حيناً وتدبير المكائد ضد خصومهم حيناً آخر[٣] .

في ضوء هذه الرؤية يمكن استعراض أطوار العلاقات العدائية بين الطرفين .

دشن إدريس الأول علاقته بالمداريين بإنقاذ حملة عسكرية للاستيلاء على تلمسان . ونلاحظ أن معظم رجالها كانوا من زناتة وبعض بطون مكناسة التي تخلت عن مذهبها الصفري وخضعت للنفوذ الإدريسي[٤] . ولا يخلو ذلك من دلالة على دهاء إدريس ؛ إذ استهدف قيام هذه القبائل بإغراء بني جلدتها في تلمسان وما حولها للانضمام إلى الدولة الإدريسية . وهذا يفسر لماذا لم يجد إدريس صعوبة في دخول المدينة دون قتال يذكر .

ولما كانت تلمسان وأهوازها موئلاً للخوارج الصفرية مذ أسس أبو قرة المغيلي إمارة خارجية صفرية بها ، فإن نجاح إدريس الأول في الاستيلاء عليها

(١) ابن حوقل : ٦٥ ، ابن أبي زرع : ٥٣.
(٢) La Berberie Musulmane. p. 124.
(٣) ابن حوقل : ٦٥ ، ابن أبي زرع : ٥٣ .
(٤) ابن خلدون : ٤ : ١٢ .

حرم المدراريين من ظهير بشري هائل، فضلاً عن مدينة ذات شهرة إقتصادية فائقة ، بالإضافة إلى تشكيل إدريس خطراً محدقاً على التخوم الشمالية للدولة المدرارية .

ومع ذلك ، لم يعدم المدراريون موالاة بعض سكان المدينة ممن رضخوا لحكم إدريس الأول قسراً . ومن ثم اهتبلو الفرصة فحرضوهم على الانتزاء بعد أن غادر إدريس تلمسان . وهذا يفسر لماذا جرد إدريس الثاني حملة أخرى تمكنت من استردادها والإثخان في الصفرية من سكانها سنة ١٩٧ هـ. ولعل في بقاء إدريس الثاني بتلمسان قرابة ثلاثة أعوام ما يفصح عن رغبته « في محو آثار الصفرية بها »[١] .

أما لماذا لم يهب المدراريون لنجدة صنائعهم ، فيرجع إلى استحالة إنفاذ جيوش من سجلماسة إلى تلمسان إلا عبر أراضي الدولة الإدريسية . إذ أن الطريق من سجلماسة إلى تلمسان يمر بدرعة وأغمات وتادلا وفاس[٢] ؛ وكلها مدن تخضع للأدارسة منذ عهد إدريس الأول .

وأهل الأدارسة سياستهم في اقتطاع أطراف الدولة المدرارية ؛ خاصة ما تمتع منها بأهمية اقتصادية أو استراتيجية . وساعد على ذلك ما جرى من سياسة اللامركزية التي طبقها محمد بن إدريس حين أسند حكم الولايات لإخوته . إذ تبارى هؤلاء في توسيع مجال نفوذهم على حساب بني مدرار . وقد انفرد اليعقوبي[٣] بذكر معلومات ضافية وهامة في هذا المجال ، إذ عاين عن كثب ما جريات الصراع الإدريسي المدراري في تلك الأصقاع . وأخبرنا أن الأمير عبد الله بن إدريس ـ الذي استقل بأغمات ونفيس والسوس الأقصى ـ تمكن من اقتطاع بعض الحصون الهامة التابعة لبني مدرار . وأن أخاه يحيى بن إدريس نجح في ضم بلدة تامدلت ـ قرب درعة ـ وهدد مناجم الفضة في درعة

(١) نفسه : ١٣ .
(٢) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٣٧ .
(٣) البلدان : ٣٥٩: ليدن ١٨٩٤ .

نفسها[١] . لكن انشغاله بالصراع مع إخوته حال دون الاستيلاء عليها .

وتمثل رد الفعل المدراري في تحريض الصفرية في دولة الأدارسة ضد عمر بن إدريس أمير فاس ؛ مستهدفين كذلك تهديد مناجم الفضة بفازاز وأوزفور داخل دولة بني إدريس[٢] . لذلك كان المدراريون من وراء انتزاء عبد الرزاق الصفري الذي تزعم جيشاً من مكناسة ومديونة وغياثة توجه به إلى فاس . ونجح في الاستيلاء على عدوة الأندلسيين . لكن مقاومة سكان عدوة القرويين واستنجادهم بيحيى بن القاسم بن إدريس حال دون إتمام فتح الصفرية فاس . وانتهت الثورة بالفشل ومقتل زعيمها عام ٢٩٣ هـ.

وما يعنينا من أمر هذه الثورة هو قيامها بتحريض من بنيي مدرار . وهي حقيقة أكدها جورج[٣] مارسيه حين لا حظ انطلاقها من مناطق التخوم المصاقبة لدولة المدراريين تم امتدادها شمالاً إلى فاس .

ويبدو أن النجاح النسبي لهذه الثورة شجع المدراريين على التفكير في غزو دولة الأدارسة ؛ خصوصاً وأن اليسع بن مدرار أمير سجلحاسة نجح في توطيد أركان دولته بعد قضائه على الفتن الداخلية . لذلك أعد حملة[٤] لهذا الغرض ؛ لم يقدر لها مبارحة سجلحاسة نظراً لظهور لخطر الفاطمي الذي أسقط الدولة المدرارية نفسها سنة ٢٩٧ هـ.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ المدرارية بطابع العداء الذي ترجم إلى صراع عسكري كانت نتائجه في الغالب الأعم لصالح الأدارسة .

جـ ـ العلاقات الإدريسية ـ الرستمية :

تمدنا المصادر بمادة ضافية عن هذا الموضوع أكثر من تلك التي تتعلق

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) عبد الكريم بيصعين : ٦١ .

(٣) La Berberi Musulmane, p. 126.

(٤) ابن الخطيب : ٣ : ١٤٥ .

بعلاقات الأدارسة مع بورغواطة وبني مدرار . وهذا راجع إلى نجاة الكثير من المخطوطات الإباضية من عبث الغزو الفاطمي لتاهرت سنة ٢٩٦ هـ .

قامت دولة بني رستم بالمغرب الأوسط سنة ١٦٢ هـ. وبرغم اتساعها جغرافيا لتشمل المغربين الأدنى والأوسط ؛ إلا أن نفوذها في غالب الأحيان لم يتجاوز تاهرت وأحوازها فضلاً عن نفوذ واهٍ في جبل نفوسة . وهذا يعني أن معظم أراضي الدولة الرستمية كانت بوادي ارتبطت بتاهرت أو خرجت عليها حسب قوة الأئمة الرسميين أو ضعفهم .

وما يعنينا أن التخوم الشمالية الغربية لدولة بني رستم كانت مصاقبة لدولة الأدارسة . وإذا كان عبد الرحمن بن رستم قد وطد نفوذه داخل هذا الإقليم عن طريق مصاهرة سكانه من بني يفرن الزناتيين[1] ؛ فقد تعرض هذا النفوذ للانهيار في عهود خلفائه ليستبدل بنفوذ الأدارسة . وغدا الإقليم مثار نزاع بين الطرفين إلى أن تأكد ضمة للأدارسة في عهد إدريس الثاني .

ونستطيع أن نؤكد طابع العداء بين الأدارسة والرستميين استناداً إلى هذا النزاع ومن ثم لا سبيل لتصديق القائلين[2] بأن العلاقة بين تاهرت وفاس قامت على أساس « المسالمة والتعايش وحسن الجوار » .

يضاف إلى ذلك مشكلات أخرى أججت الصراع بين الطرفين ؛ منها الاختلاف المذهبي بين العلويين الزيدية والخوارج الإباضية حيث تدثر الصراع بين الطرفين بغطاء المذهبية التي عكست صراعاً أعمق اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً . إذ عاشت طوائف زيدية واعتزالية في كنف الدولة الرستمية ، كما عاشت طوائف إباضية داخل دولة الأدارسة وعولت كل منها على دفع زكاة أموالها لشيوخ طوائفها في الدولة الأخرى . كما قامت بدور سياسي مناهض ضد حكام الدولة التي عاشت في كنفها لصالح الدولة الأخرى . وود كل منها لو هاجر إلى

(١) أبو زكريا : السيرة وأخبار الأئمة ، ورقة ١٤ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٢) حسن عبد العواد : المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

الدولة الأخرى للعيش في كنف أئمتها الذين كانوا على مذهبها[١] .

من هذه المشكلات أيضاً وجود أقليات عنصرية وقبلية عاشت في كل من الدولتين كان ولاؤها متذبذباً ؛ فتارة توالي الرستميين وأخرى تشايع الأدارسة . وفي الحالين معاً شكلت حجر عثرة أمام بسط نفوذ « المخزن » على سائر عناصر السكان داخل حدود الدولة . فمعلوم أن عناصر فارسية عاشت في فاس[٢] منذ تأسيسها ، كما وفدت عناصر أخرى فارسية من إفريقية الأغلبية على أثر الصراع الشعوبي بها[٣] . وقد شكلت هذه العناصر « طابوراً خامساً » لبني رستم الفرس . كما ضربت قبائل من بربر هوارة وزناتة في دولة بني إدريس كانت على المذهب الإباضي ثم أرغمت على التخلي عنه . لكنها لم تفتأ تتصل بأئمة تاهرت الإباضية لتحريرهم من سطوة الأدارسة .

وبالمثل وجد في دولة بني رستم بطون بعض قبائل البربر التي ضربت قبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية ، وكانت هذه البطون تسعى للأنضمام لقبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية[٤] . ولم تأل جهداً في إثارة المتاعب ضد بني رستم لصالح الأدارسة .

كما أن قبائل البتر من البدو الرعاة لم تجد حرصاً في اقتحام الحدود « المائعة » بين الدولتين ؛ الأمر الذي أثار النزاع بين الأدارسة والرستميين من أجل إقرار سلطانهم عليها .

فإذا أضيف إلى ذلك كله صلات الرستميين الودية بأمويي الأندلس أعداء الأدارسة ، أدركنا أن الصراع بين الطرفين كان قدراً محتوماً .

---

(١) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) ذكر ابن أبي زرع أن هذه العناصر الفارسية أسهمت في بناء مدينة فاس التي عرفت لذلك باسم « مدينة الفرس » ثم حرفت إلى «فاس».
راجع : ابن أبي زرع : ٤٥.

(٣) السنوسي : الدرر السنية : ٦٢ .

(٤) أبو زكريا : ٣٦ .

والملاحظ أن كفة الأدارسة كانت أرجح في هذا الصراع رغم اتساع دولة بني رستم . ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الرستميين كان سلسلة متصلة من الانشقاقات المذهبية والحروب الأهلية القبلية والعنصرية ، فضلاً عن الصراع حول الإمامة بين أفراد الأسرة الحاكمة[1] . وهذا يفسر لماذا أمسك الأدارسة دائماً بزمام المبادرة ، ولماذا اتهم المؤرخون[2] بني رستم بالموادعة والإستكانة والخذلان .

في ضوء هذه الاعتبارات يمكن رصد أطوار الصراع الإدريسي ـ الرستمي الذي انتهى لصالح الأدارسة .

بدأ العداء بين الطرفين على أثر قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ. إذ أرغم الإباضية من قبائل زناتة وهوارة وزواغة ولماية ونفزة على مبايعة إدريس الأول قسراً[3] . كما أن إدريس أثخن في إباضية أسافل شلف حين توجه إلى تلمسان سنة ١٧٣ هـ[4] . بل إن استيلاءه على تلمسان ذات الشهرة التجارية والاستراتيجية والكثافة البشرية تم على حساب نفوذ الرستميين والمدرارين[5] معاً .

وتمثل رد الفعل الرستمي في تجنيد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن حملة لاسترداد هذا النفوذ المفقود ؛ لكنه عاد أدراجه بعد أن خشي مغبة اقتحام تلمسان . ولم يكن بوسعه إلا إعمال الحيلة في الكيد لخصومه . لذلك رحب بمقدم سليمان بن عبد الله ـ الذي شجر نزاع بينه وبين المولى راشد عقب وفاة إدريس ـ بغية إحداث تصدع في دولة الأدارسة[6] . كما أوعز إلى إباضية تلمسان بالانتزاغ ؛ لكنهم لم ينعموا طويلاً بالانفصال عن الأدارسة . إذ جرد

---

(١) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٥٤ وما بعدها .

(٢) انظر : Gautier : Op. Cit. p. 295.

(٣) ابن خلدون : ٤ : ١٢ ، Grautie Op. Cit, p.274.

(٤) ابن أبي زرع : ٢٣ .

(٥) اليعقوبي : ٨٠ ، البكري : ٧٦ .

(٦) البكري : ٧٧ ، ابن خلدون : ٤ : ١٧ .

عليهم إدريس الثاني حملة أثخنت فيهم قتلاً ، وأرغم من بقي حياً على التخلي عن المذاهب الإباضية[1] .

وعبثاً حاول هؤلاء طلب النجدة من الرستميين ؛ لذلك اضطروا للاعتراف بطاعة الأدارسة ، بل حاولوا إغراء بني رستم بأن يحذوا حذوهم .

ونظراً لأنشغال الإمام عبد الوهاب الرستمي بمواجهة خطر الانشقاقات المذهبية في تاهرت وحركات الانفصال في جبل نفوسة ، لم يتمكن من تصحيح الأوضاع في تخوم دولته . واكتفى بإنفاذ جند من نفوسة لشن إغارات متفرقة على تلمسان[2] .

وانتقم إدريس الثاني من غريمه عبد الوهاب بتمريض طوائف المعتزلة والزيدية للثورة عليه . وبالفعل تجمع ثلاثون ألف معتزلي من هوارة وزناتة حول تاهرت فضلاً عن معتزلة أيزرج[3] وغيرها من الجيوب الاعتزالية والزيدية التي عاشت شبه مستقلة في المغرب الأوسط[4] . وفي ذلك يقول أبو زكريا[5] « تكاثفت كلمتهم واجتمعوا من كل نقب وجاءوا من كل أوب وأظهروا مخالفة الإمام » .

دارت معارك كلامية وعسكرية كان الظفر فيها للثوار . ولم يستطع عبد الوهاب الرستمي فك الحصار حول تاهرت إلا بعد وصول إمدادات من جبل نفوسة[6] . وبرغم هزيمة الثوار وهرب من هرب منهم إلى دولة الأدارسة ، ما فتئوا يعدون العدة لجولات أخرى . وقد لاحت الفرصة في أواخر العصر

---

(١) Mercier : Histoire de L'Afrique Septentrionale, Vol. I, Paris, 1888, p.89.

(٢) الشماخي : السير : ١٩٨ ، القاهرة ؟

(٣) اليعقوبي : ٨٠ .

(٤) اطلق أحد الدارسين على تلك الجماعات مصطلح « إقطاعات الأسياد » .
انظر : محمد الطالبي : ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٥) السيرة وأخبار الأئمة : ٢٩ .

(٦) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٦١ .

الرستمي حيث تكاتفوا مع الطوائف غير الإباضية « لتبييت خبر الإباضية »[١] .

وفي كل الأحوال كان الأدارسة ضالعين في إثارة هذه الجماعات ضد بني رستم . كذلك لا نشك في تحريض الأدارسة بربر هوارة الضاربين في الدولة الرستمية ضد أئمتها ؛ خصوصاً وأن مواطنهم الأصلية كانت في دولة الأدارسة[٢] . مصداق ذلك أنه بعد أن محق الرستميون تمردهم هربوا إلى جبل ينجان بالدولة الإدريسية ؛ وطفقوا يعدون العدة لجولة أخرى . حتى إذا عم الاضطراب تاهرت من جراء صواع العصبيات ، نجحوا في اقتحامها سنة ٢٦٠ هـ وتولى زعيمهم محمد بن مسالة السلطة ستة أعوام ؛ إلى أن طردوا على يد الإمام الرستمي أبي اليقظان محمد بعد استعانته بقبائل البربر الأخرى وخاصة نفوسة[٣] .

ما كان بوسع الرستميين الأواخر الرد على تلك المؤامرات الإدريسية رغم خطورتها ، وهو أمر ينفي ما ذهب إليه جوتييه[٤] بأن الرستميين دأبوا في الرد على مبادرات بني إدريس العدائية . وبالمثل لا يمكن تصديق مقولته بأن إدريس الثاني أسس مدينة فاس خصيصاً حتى يتحاشى مؤامرات بني رستم . إذ نعلم أن إدريس الأول هو الذي أسس المدينة ، وأن إدريس الثاني زاد في عمرانها وانتقل إليها ليتحرر من هيمنة أوربة .

وبرغم ما آلت إليه دولة الأدارسة من ضعف وانهيار في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري ، لم يتمكن الرستميون من استرداد أراضيهم التي

---

(١) راجع : Motylinski : Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams. Rostimides de Tahaut. Actes du 14 Congres internationales des Orientalistes, Alger, 1905. Vol. 3. part 2, p.51.

(٢) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٩٧ .

(٣) نفسه : ١٩٩ .

(٤) Les Siecles obscurs . p.290.

اقتطعها الأدارسة في أهواز تلمسان . وهذا ينفي ما ذهب إليه فورنل[١] من نجاح الرستميين في استرداد تلمسان ذاتها . إذ نعلم أن تلمسان وما حـولها ظلت في حوزة آل سليمان، وشكلت « إمارة حاجزة » بين بني رستم وبني إدريس . وهذا يفسر بالمثل لماذا لم يقدم الأدارسة بدورهم على غزو تاهرت رغم تردي أحوالها حول ذلك التاريخ[٢]. إن ضعف الدولتين معاً حال دون إقدام إحداها على غزو الأخرى .

وقـد انتهز آل سليمَان تلك الفرصـة لتوسيـع نفـوذهم على حسـاب بني رستم ؛ فنجحوا في شن إغارات على قلاعهم وحصونهم ومـوانئهـم على البحر المتـوسط أسفرت عن ضم بعض هـذه المدن مثـل الخضـراء وسـوق إبـراهيم وغيرها[٣] ؛ بعـد أن نكلوا بسكانهـا من الإباضيـة . وبرغم احتفـاظ بني رستم ببعض المدن الساحلية الأخرى ـ كمرسى الدجاج ومرسى فروخ ـ إلا أن أخطار السليمانيين ما لبثت أن هددت النشاط التجاري بينها وبين الأندلس[٤] .

ونجم عن استكـانة الـرستميين إزاء آل سليمان تخلي الكثيـر من البربـر الإباضية عن مذهبهـم واعتناقهم المذهب الزيدي[٥] . وقد لعب هؤلاء دوراً بارزاً في تدبير المكائد ضد الرستميين في تـاهرت لصـالح آل سليمـان والأدارسة . وليس أدل على تعاظم نفوذهم من إرغامهم أئمة الرستميين الأواخر على الخطبة بـاسم علي بن أبي طالب في مسـاجد تـاهرت[٦] . كمـا أن دعوتهم « للعـدل

---

(١) Les Bearbers , Vol. 2. p. 13 .

(٢) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٧٠ وما بعدها.

(٣) اليعقوبي : ٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) أخطأ فندرهيدن حين ذهب إلى أن آل سليمان استولوا على كافة المواني والمدن الرستمية على ساحل البحر المتوسط ، حتى لاصقت حدود إمارتهم إفريقية الأغلبية . انظر : La Berberie Orientale. p.247.

(٥) محمد الطالبي : ٦٢٥.

(٦) ابن الصغير : ٤٢ .

والتوحيد » أغرت عوام المدينة بالانضمام إليهم . ووصل نفوذ هؤلاء العوام إلى حد التحكم في تنصيب الأئمة الرستميين وعزلهم[١] .

مهدت هذه الظروف لإقدام بعض أمراء الأدارسة ـ مثل أبي العيش عيسى بن إدريس حاكم جراوة وأحمد بن القاسم بن إدريس حاكم كرت ـ[٢] على الاتصال بزعماء عوام تاهرت لتدبير ثورة ضد الإمام الرستمي أبي حاتم يوسف . ولما فشلت الثورة هرب زعماؤها لائذين بآل سليمان والأدارسة[٣] .

على أن العداء السياسي بين الأدارسة وبني رستم لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية بينهما[٤] . ويخيل إلينا أن العلاقات الإقتصادية بين الأدارسة وسائر دول الخوارج في المغرب خففت إلى حد كبير من غلواء الصراع السياسي . وفي ضوء ذلك يمكن تفسير عدم حدوث تغييرات ذات بال في خريطة المغرب السياسية خلال القرن الثالث الهجري . ويبدو أيضاً أن صيغة « التوازن » التي حكمت العلاقات بين سائر دول المغرب الإسلامي آنذاك كانت نتيجة حرص كافة القوى على الإفادة من النشاط الاقتصادي المزدهر . وقد ظلت تلك الصيغة قائمة حتى ظهور الفاطميين الذين دشنوا بداية عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي .

صفوة القول ـ أن سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج في المغرب اتسمت

---

(١) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٧٧ .

(٢) شاركت بعض الزعامات العلوية غير الإدريسية هذين الأميرين من بني إدريس في التآمر على عوام تاهرت ضد أئمتها من بني رستم. وقد أورد اليعقوبي أماكن هذه التجمعات العلوية ، فذكر أنها تمركزت في هاز وزوارة وسهل متيجة ومليانة والخضراء وسوق إبراهيم وغالته وصبرة وحرابه .
انظر : البلدان : ٣٥٣ .

(٣) محمود إسماعيل : الخوارج : ١٩٩ .
وكان الشاعر بكر بن حماد الزناتي ـ أخ زعيم عوام تاهرت محمد بن حماد ـ ضمن الذين اشتركوا في تدبير المؤامرة .

(٤) ابن حرقل : ٩٥ ، ابن خلدون : ٦ : ٤٦١ .

بطابع العداء الذي ترجم إلى صراعات عسكرية مريرة ؛ لكنها لم تسفر عن الإطاحة بأي من هذه القوى ، نظراً لفعالية التعاون الاقتصادي في صياغة تاريخ العلاقات السياسية آنذاك .

الفصل الثالث

سياسة الأدارسة
إزاء أموي الأندلس والفاطميين

ننوه في مستهل هذا الفصل بأننا سنتتبع العلاقات الإدريسية ـ الأندلسية إبان عصر الإمارة الذي يبدأ بإحياء عبد الرحمن بن معاوية ـ المعروف بالداخل ـ الحكم الأموي في الأندلس عام ١٣٨ هـ وينتهي بإعلان عبد الرحمن الناصر الخلافة عام ٣١٦ هـ.

أما عن العلاقات الإدريسية الأندلسية ـ الأندلسية إبان عصر الخلافة الأموية ؛ فسوف نتتبعها من خلال تبيان موقف الأدارسة من الصراع الفاطمي ـ الأندلسي بالمغرب الأقصى ؛ حيث تتداخل الأحداث وتختلط وتتغير المواقف بتنوع معطيات وما جريات هذا الصراع .

هذا بالإضافة إلى أن الدولة الإدريسية قد تمزقت وتشرذمت، وتباينت مواقف أمراء نواحيها إزاء بعضهم البعض . وبالمثل إزاء قطبي الصراع في المهدية وقرطبة ؛ بحيث يستحيل تحديد موقف واحد وثابت للأدارسة إزاء الخصمين معاً فضلاً عن القوى المحلية التي دارت في فلكهما .

وننوه أيضاً بأننا سنقف على انهيار وتداعي ثم سقوط الأدارسة من خلال عرضنا لسياستهم إزاء الفاطميين وخلفاء قرطبة ؛ بحيث لا تدعوا الحاجة إلى إفراد مبحث مستقل في هذا الصدد .

أ ـ علاقات الأدارسة بأموي الأندلس في عصر الإمارة :

نعلم أن بني العباس أسقطوا الخلافة الأموية عام ١٣٢ هـ. ونعلم أيضاً

أن أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن الداخل استطاع النجاة من المذابح العباسية في الشرق وهرب إلى المغرب . ثم انتهز فرصة اضطراب الأندلس من جراء « الحرب الأهلية » وتمكن من اعتلاء الحكم في قرطبة عام ١٣٨ هـ؛ ليدشن عصراً اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الإمارة . ذلك أن عبد الرحمن الداخل وخلفاءه تلقبوا بلقب « الأمير » ولم يجرؤوا على اتخاذ لقب الخلافة إلا في عهد عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر سنة ٣١٦ هـ.

وقد اتسمت علاقات الأدارسة بأمراء قرطبة الأمويين بالطابع العدائي . ويذهب بروفنسال(١) إلى أن هذا العداء موروث عن الصراع الميعروف بين علي ومعاوية ، فضلاً عن العداء المتأصل بين الأمويين والعلويين ؛ نظراً لما حل بالشيعة من محن على أيدي بني أمية . لكننا نرى أن العلاقات الدولية لا تصاغ على أساس الاختلاف المذهبي والثارات القديمة . وحسبنا أن زعماء الزيدية في الشرق لم يحالفوا في انضمام أتباع الأمويين إليهم حين ثاروا ضد بني العباس(٢) .

ويمكن الوقوف على أسباب العداء أئمة فاس وأمراء قرطبة ؛ إذا ما أدركنا صحة قاعدتين هامتين حكمتا العلاقات بين الطرفين وهما :

أولاً : إستناد العلاقات الدولية في الغرب الإسلامي آنذاك إلى قاعدة « توازن القوى » والاعتراف بسياسة « الأمر الواقع ». فلم يحدث قط أن حاولت أو استطاعت أي من هذه القوى أن تسقط الأخرى . وهذا راجع إلى عقد ائتلافات وتحالفات سياسية حافظت على صيغة « التوازن » تلك . شهد المغرب الإسلامي آنذاك محورين أساسيين ؛ المحور العباسي ـ الأغلبي وهو معاد لكافة دول المغرب الإسلامي التي كانت « إمارات استيلاء » قامت رغم أنف

---

(١) انظر : Histoire de L'Espagne Musulmane, Vol. 1, Alger, 1944, p. 173.

(٢) انظر : الفصل الأول من الباب الأول .

العباسيين . واستهدف هذا المحور الحؤول دون تسرب نفوذ أي من هذه الإمارات نحو الشرق .

وضم المحور الثاني أمويي الأندلس ودول الخوارج الثلاث في المغرب فضلاً عن إمارة الحميريين بنكور . وقد استهدف بالمثل الحيلولة دون تسرب العباسيين والأغالبة نحو المغرب . وهنا يصدق قول جوتييه[1] أن « صيغة التوازن حكمت منظومة الأحداث في المغرب الإسلامي حتى اختلت بعد ظهور الفواطم ».

أما الأدارسة ؛ فلم يندرجوا في سلك أي من هذين المحورين واختطوا سياسة مستقلة . ونعتقد أن هذا الموقف راجع إلى مخططهم التوسعي صوب الشرق الأمر الذي أدى إلى اصطدامهم بكافة القوى المجاورة فضلاً عن العباسيين . وبرغم هذا النهج الإدريسي الخاص الذي استجلب عليهم عداوة كافة دول الغرب الإسلامي ؛ ظلت صيغة « التوازن » قائمة . إذ أثبتت الأحداث عجزهم عن تنفيذ مخططهم التوسعي الطموح . كما كفلت هذه الصيغة بقاء دولة الأدارسة واستمرارها بطريق غير مباشر . إذ لم يكن بوسع الأغالبة ولا العباسيين القضاء عليها إلا على أنقاض دول الخوارج المجاورة والمعادية للثالوث العباسي الأغلبي والإدريسي . وبالمثل لم يتطلع أمويو الأندلس للقضاء على دولة الأدارسة ـ برغم العداء ـ لأنها شكلت « دولة حاجزة » بينهم وبين الأغالبة أحفاد بني العباس ومنفذي سياستهم في المغرب الإسلامي . ولم يكن بوسع الأدارسة كذلك غزو الأندلس نظراً لأن إمارة الحميريين بنكور ـ الموالية لقرطبة ـ شكلت بالمثل إمارة حاجزة بين أمراء فاس وأمراء قرطبة . وهذا يفسر أخيراً لماذا ظلت خريطة المغرب الإسلامي السياسية دون تعديل أو تغيير يذكر . ولماذا ظلت « الأوضاع الراهنة » ـ «Statusquo» ـ تفرض وجودها على سائر القوى برغم سياسة تكوين المحاور السياسية .

---

(١) Les Siecles obscurs. p. 413.

ثانياً : مما زاد في إقرار صيغة التوازن وبقاء سياسة الاعتراف بالأمر الواقع ؛ حرص كافة القوى على الإفادة من النشاط التجاري المزدهر الذي شهده العالم الإسلامي بأسره آنذاك . ومن هنا تبرز أهمية الأسباب الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية . فمعلوم أن المغرب الإسلامي ـ على نحو خاص ـ شهد نهضة زراعية ورعوية وصناعية وتجارية وبعد أن استقل عن الخلافة الشرقية . وكان من صالح كافة قواه الإفادة من هذا الرخاء عن طريق التبادل التجاري ، وذلك بتأمين الطريق التجاري بين الشرق والمغرب وبين الشمال والجنوب . وقد كشف موريس[1] لومبار عن أهمية ذهب السودان ورقيقه بالنسبة لدول المغرب الإسلامي خصوصاً والعالم الإسلامي بوجه عام بما يغني عن البيان . ونرى أن ما شجر من صراعات من المغرب الإسلامي إنما كانت من جراء التنافس بين دوله حول الطرق والمنافذ والمدن والموانىء ذات الصلة بتجارة الشرق ـ المغرب والشمال ـ الجنوب . ونعتقد أن هذه الصراعات لم تصل إلى حد القطيعة بحيث خففت المصالح الاقتصادية المشتركة من غلواء المذهبية والإثنية والتناحر السياسي والعسكري .

في ضوء هذين العاملين يمكن تحديد أسباب العداء الإدريسي ـ الأموي والوقوف على مظاهره ووسائله ومعرفة أهدافه وغاياته .

أما عن الأسباب ؛ فترجع ـ بالدرجة الأولى ـ إلى كون دولة الأدارسة تمثل أخطر القوى المغربية على الأندلس خصوصاً بعد أن توسعت على حساب دول الخوارج وتحكمت في مقدرات اقتصادية هائلة وطاقات بشرية متعاظمة . وهذا يفسر لماذا وطدت قرطبة صلاتها بالدول المجاورة للأدارسة . ويفسر أيضاً حكم أحد الباحثين بأن « أمويي الأندلس عملوا على إفساد أي مخطط بالمغرب

(١) المذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي : ٦٤ وما بعدها.

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : ٢ : ٥٦٩، الإسكندرية ١٩٦٦ .

الأقصى »، وحكم آخر[1] بأنهم « أولوا أمور العداوة اهتماماً كبيراً رغم مشاكلهم الداخلية ». ونرى أن هذه الإهتمام لم يقتصر فحسب على الجوانب السياسية ، بل انسحب إلى النواحي الاقتصادية ، إذ حرص أمويو الأندلس على أن تظل أسواق المغرب الأقصى مفتوحة أمام بضائعهم فضلاً عن الفوز بنصيب من تجارة السودان .

لم يكن الأدارسة ـ بالمثل ـ بمنأى عن اليد الطولي لحكام قرطبة ؛ لذلك عملوا لهم ألف حساب خاصة بعد سيطرة أساطيلهم على القطاع المغربي من البحر المتوسط فطلاً عن شواطىء المحيط الأطلسي .

يضاف إلى ذلك وجود قبائل من البربر بالأندلس كانت أصولها تضرب في دولة الأدارسة ، كذا وجود عناصر أندلسية تعيش في كنف الدولة الإدريسية ، وظفها الطرفان في الكيد والدس ضد بعضهما البعض ، الأمر الذي زاد في العداء بينهما .

أما عن مظاهر العداء ؛ فلم يكن بينها المواجهة العسكرية بطبيعة الحال ! حتى تخيل بروفنسال[2] أن العلاقات بين فاس وقرطبة كانت ودية . إنما اقتصرت هذه المظاهر على حيك المؤامرات والمكائد والتجسس وتشجيع المنتزين ؛ وهو ما سيظهر بوضوح من خلال العرض .

لعل أول إشارة في المصادر عن علاقات فاس بقرطبة ما ذكره ابن الخطيب[3] وابن عذاري[4] عن تشجيع الأدارسة الثوار المنتزين على أمراء قرطبة ؛ إذ ذهبا إلى أن عبد الله البلانسي وأخاه سليمان تواطآ مع إدريس الأول للثورة على ابن أخيهما الحكم بن هشام الذي انفرد بالسلطة في قرطبة . لذلك أقاما ردحاً في دولة الأدارسة يعدان العدة حتى أمدهما إدريس الأول بجند من

(١) محمد الطالبي : ٤١٣ .

(٢) Histoire de L'Espagne Musulmane. Vol, 1, p. 247 .

(٣) أعمال الأعلام : ٣ : ١١ .

(٤) البيان المعرب : ٢ : ٩٤ .

العدوة فغادراها إلى الأندلس ؛ الأول في عام ١٨٠ هـ والثاني في عام ١٨٢ هـ. ويخطىء بعض الدارسين[١] الذين ذهبوا إلى أن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية هو الذي ساعدهما للإطاحة بابن أخيهما . وليس أدل على هذا الخطأ من أن إبراهيم لم يكن قد تولى بعد إمرة إفريقية ، إذ الثابت أن ولايته تمت عام ١٨٤ هـ.

وإذا كنا لا نشك في أن إدريس الأول هو الذي ساعد الثائرين ، فمن المحقق خطأ[٢] الزعم بأن الحكم بن هشام أوفد سفارة إلى فاس لتهنئة إدريس الثاني عقب تقلده الحكم . والأكثر غرابة الزعم بأن هذه السفارة أزمعت عقد تحالف مع إدريس الثاني ضد العباسيين والأغالبة . والأقرب للمنطق أن يتخوف الحكم بن هشام من خطر إدريس الثاني بعد تقاطر وفود من إفريقية والأندلس سواء من العرب أو من البربر لمبايعته والعيش في كنف دولته [٣] . يفسر ذلك ما أقدم عليه من استدعاء جيشه الذين كان يقاتل الفرنجة في الثغر الأعلى نتيجة استفحال خطر إدريس بأرض العدوة[٤] .

وليس أدل على طابع العداء بين العاهلين من ترحيب إدريس الثاني بالثائرين على الحكم من أهل الربعن وتخصيص عدوة الأندلسيين بفاس لسكناهم. وقد استهدف إدريس من ذلك عدة غايات، الأولى: الإفادة من خبرة هؤلاء المهاجرين في أمور العمران بدولة خاصة وأن معظمهم كانوا من الحرفيين والصناع المهرة[٥] . والثانية : الاستعانة بهم لموازنة نفوذ البربر في دولته

---

(١) انظر : عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٣١، القاهرة ١٩٦٩ ،
Condé: History of the domenium of the Arabs in Spain, vol. 1, London, p.247.

(٢) Ibid : 350,
Scott : History of the Moorish empire in Europe. Vol. 1, London, 1904, p. 456.

(٣) محمد عبد الله عنان : ٢٤١ .

(٤) نفسه : ٢٤٢ .

(٥) عبد الكريم بيصعين : ٩٠.

والتحرر من نفوذ قبيلة أورربة على نحو خاص . والثالثة : توظيفهم في تدبير وتنفيذ المكائد ضد أمراء قرطبة جرياً على سياسة الأدارسة الشائعة في هذا الصدد(1) . ولذات الدوافع لم يتقاعس إدريس الثاني وخلفاؤه عن الترحيب بمزيد من الهجرات الأندلسية ـ نتيجة القحط ـ وإسكانهم فاس وأصيلا والبصرة(2) .

وقد تجلت سياسة الأدارسة في الكيد لأمويي الأندلس حينما ناصروا الثائر عمر بن حفصون . إذ نعلم أنه اتصل بادىء الأمر بالأغالبة لمساعدته على أن تكون ثورته على أمراء قرطبة باسم العباسيين . فلما تقاعسوا عن نصرته(3) لجأ إلى الأمير الإدريسي إبراهيم بن القاسم صاحب البصرة وطلب منه المؤازة على أن يقيم الخطبة باسمه(4) . يؤكد ذلك ما ذكره ابن عذاري(5) من أن « مراسلات ومكاتبات جرت بينهما في هذا النفاق » . وفي ذلك يقول أحد الدارسين(6) « تفاقم خطر عمر بن حفصون لأن الأدارسة أيدوه مادياً ومعنوياً ؛ خاصة وأن أطماع هذا الفرع من البيت الإدريسي كانت طموحة لزعامة المغرب الأقصى في ظل المذهب الشيعي الزيدي » . ونجد مصداق ذلك في أشعار عبرت عن إحياء المشروع الإدريسي السياسي في تأسيس دولة زيدية بالمشرق(7) .

---

(1) مجهول : نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى ، ص ٤٢٣ ، الرباط ١٩٢٩ .

(2) ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود مكي ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٦٦ ، البكري : ١٠٩ ، ١١٠ .

(3) راجع : محمود إسماعيل : الأغالبة : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(4) محمد الطالبي : ٤١٤ .

(5) البيان المغرب : ٢ : ٢٣٣ .

(6) عبد الكريم بيصعين : ١٩٤ .

(7) عبر أحد الشعراء عن هذه الطموحات في أشعار تهجو القاسم بن إدريس ، جاء بها :

قل للزنيم زنيم طنجة عش بها ... لا يحسدنّك في بلادك حاسد
منّتك نفسك أن تكون خليفة ... هيهات هذا من حديثك بارد

أما عن موقف أمراء قرطبة إزاء هذا التآمر ؛ فيمكن الوقوف عليه من خلال إحكام وشائج علاقات وطيدة مع الدول المجاورة للأدارسة بهدف تطويقها والحؤول دون تهديد الأندلس من ناحية ، وتهديد مصالحهم الاقتصادية بعدم الاتجار مع أمير البصرة من ناحية أخرى .

ويكشف نص هام لابن حبان عن حقائق جد هامة في هذا الصدد من المفيد إثباته .

يقول ابن حيان[1] « قال عيسى بن أحمد بن محمد الرازي صاحب التاريخ : كان الأمير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمم بخبر الساحل والعدوة ، مراعياً لما هنالك من أخبار أعدائه ، متحولاً عنهم لكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البرابر الملقين إليه بالولاية : كبني مدرار ملوك سجلماسة ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم ».

وفي موضع آخر[2] يقول : « كان الخلافة الأمير محمد بن عبد الرحمن نضارة ولأيامه زهوة ، ولسلطانه جلالة سرت أخبارها إلى المشرق . . . اعتقد له من أجله كثير من الملوك بالعدوة الولاية وألقوا إليه بالمودة . . . وكان أكفلهم بما لديه من أملاك أهل العدوة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أفلح بن عبد الوهاب الرستمي أمراء تاهرت وغيرهم » .

وفي موضع ثالث يقول ابن حيان[3] : « كان الأمير محمد كثير المواصلة

انظر : البكري : ١٢٢ .

وتظهر هذه الطموحات في أشعار للقاسم بن إدريس ؛ حيث يقول :

سأترك للراغب الغرب نهباً ... وإن كنت في المغرب قيداً وندبا
وأسموا إلى الشرق في همة ... يعز بها رتباً من أحبا

انظر : ابن الآبار : ١ : ١٣٢ .

(١) المقتبس ، تحقيق مكي ، ص ٢٦٥ .
(٢) نفسه : ٢٧٥ .
(٣) نفسه : ١٢٥ .

لملوك العدوة ، حريصاً على استئلافهم ، موالياً لمراسلتهم ، مواظباً لمتاحفتهم . . . . يقول لوزرائه كثيراً وخدمته ؛ استدعوا مؤالفتهم بلطيف المخاطبة . . . ويأمر صاحب العمل دأباً أن يزيدهم في قيم ما يهديه كبارهم ويحمل تجارهم من بلادهم ؛ غبطاً لهم بمعاملته » .

يفهم من النصّين الأول والثاني الهدف السياسي المتوخى من عقد أمير قرطبة أواصر الوداد مع أمراء سجلماسة وتاهرت فضلاً عن بورغواطة ونكور ؛ حيث أردف النص بكلمة « وغيرهم » .

وإذا كان الهدف السياسي من وراء تكتيل هذه القوى الموالية لقرطبة موجهاً إلى العباسيين والأغالبة ؛ فالأحرى أن ينسحب كذلك على الأدارسة . ذلك أن النص يذكر صراحة عبارة «أعداء الأمير محمد في العدوة»[1] ؛ خصوصاً وأن مفهوم «العدوة» كان يعني المغرب الأقصى كما هو معروف لدى المتخصصين . ويفهم من النصين الأولين أيضاً أسلوب التجسس الذي عولت عليه كافة القوى آنذاك ؛ خاصةً وأن النشاط التجاري يتيح لعيون وجواسيس دول الخوارج الوقوف على أخبار جيرانهم الأدارسة . وهو أمر استخلصه إبن حيان نفسه حين ذكر أن الأمير محمد لم يتقاعس عن إنفاذ عيونه وجواسيسه ضد أعدائه مموهين بالإشتغال في التجارة[2] .

أما النص الثالث ؛ فيكشف في وضوح عن مصالح أمويي الأندلس في تجارة المغرب ؛ وبالذات ما تعلق منها بالسلع السودانية[3] . وهذا يفسر لماذا أوصى الأمير محمد وزراءه وعماله بحسن معاملة تجار العدوة .

وليس أدل على اهتمام أموي الأندلس بالتجارة المغربية والسودانية من الصلات الطيبة بين تجار الأندلس وتجار الأدارسة أنفسهم . إذ دأب الطرفان

---

(١) نفسه : ٢٦٠ .

(٢) نفسه : ٢٦٩ .

(٣) عن مزيد من المعلومات ؛ راجع : محمود إسماعيل : الخوارج : ٢٧١ وما بعدها .

على التعامل في أسواق أصيلا رغم العداء السياسي بين فاس وقرطبة . وفي ذلك ذكر البكري[1] أن هؤلاء التجار من الدولتين هم الذين اشتركوا في تأسيس أصيلا ؛ حيث كانت في البدء رباطاً تحول إلى سوق ثم أصبحت مدينة تجارية هامة بعد أن أسهم في بنائها وعمرانها تجار من دولة الأدارسة بالتعاون مع تجار من الأندلس .

هكذا كان النشاط التجاري بين فاس وقرطبة مستهدفاً في حد ذاته من ناحية وموظفاً لأغراض سياسية من ناحية أخرى[2] . وفي هذا الميدان أبلى «الجواسيس التجار» الأندلسيين بلاءً حسناً [3] .

وإذ تبنّت دول الخوارج المصالح الأندلسية التجارية والسياسية في المغرب ؛ فإن إمارة الجميزيين بنكور لعبت نفس الدور لصالح قرطبة ضد الأدارسة . ففضلاً عن متاخمتها دولتهم شمالاً ؛ الأمر الذي جعل منها «خط دفاع أول» ضد أية تحرشات إدريسية بالأندلس ؛ كانت على صلات تجارية وثيقة بقرطبه[4] . وقد أثبت أحد الدارسين[5] ـ بما يغني عن اللجاج ـ هذا الدور السياسي الذي تبنته إمارة نكور لصالح أمويي الأندلس فضلاً عن الدور التجاري حيث كانت موانيها مثل مليلية وتمسامان ونكور تغص بالسفن الأندلسية لنقل الخشب والحديد الذي أفاد منه أمويو الأندلس في بناء أساطيلهم الحربية والتجارية .

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأندلسية في عصر الإمارة بطابع العداء الذي اتخذ صوراً شتى ؛ لكنه لم يصل قط إلى حد امتشاق الحسام .

---

(١) المغرب : ٨٨ .

(٢) ابن حيان : ٢٧٥ .

(٣) محمود إسماعيل : مغربيات : ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٤) Provençal : Op. Cit. Vol. 1, p. p. 249 seq.

(٥) انظر : عبد الكريم بيصعين : ٣٣ ، ٦٤ .

ب ـ موقف الأدارسة من الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب الأقصى :

بظهور الخلافة الفاطمية في إفريقية والأموية بالأندلس وتدهور دولة الأدارسة بعد تمزقها وتشرذمها ؛ اتخذت العلاقات بين هذه القوى الثلاث مساراً جديداً . فقد شهد المغرب الأقصى صراعاً دامياً بين أمويي الأندلس والفواطم تذبذبت إبانه مواقف الأدارسة إزاءها حتى قضى عليها في النهاية سنة ٣٧٥ هـ .

ومن المفيد الكشف عن أسباب هذا الصراع وتحديد مصالح القوى التي انزلقت إليه ، كذا الوقوف على الأساليب والوسائل التي تذرعت بها لتحقيق هذه الأهداف .

نرى أن الأسباب كانت سوسيو ـ سياسية قحة على أساس أن المصالح السياسية والاستراتيجية والاقتصادية جبت الاختلافات المذهبية والتناقضات الإثنية التي كانت مجرد وسائل توسلت بها قوى الصراع لتحقيق أهدافها أحياناً ومظاهر لهذا الصراع أحياناً أخرى . وفي ذلك يقول أحد الباحثين[١] « جرى هذا الصراع الطويل لتحقيق مصالح حيوية واستراتيجية تكمن في السيطرة على طرق ومدن ومحطات التجارة في المغرب الأقصى » . ويقول آخر[٢] : « إن السبب الجوهري للصراع الفاطمي الأموي كمن في السيطرة على المسلك الغربي لتجارة السودان » .

فالفاطميون حرصوا على الوصول إلى هذه الطرق والمدن ذات الأهمية بالنسبة لتجارة الشرق ـ الغرب والشمال ـ الجنوب لجمع الثروات التي تعين على تحقيق أطماعهم في مصر . وهذا يفسر لماذا كانت سياساتهم في المغربين الأوسط والأقصى لا تهتم بالتوسع بهدف الاستقرار قدر إنفاذ الحملات بين الفينة

---

(١) انظر : عبد الكريم بيصعين : ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) انظر : الحبيب الجنحاني : دراسات مغربية في التاريخ الإقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي ، ص ٧٣ ، بيروت ١٩٨٠ .

والأخرى لضمان موارد التجارة الدولية وفرض المغارم والجبايات على السكان . وقد اعتمدوا في ذلك على قبائل كتامة وصنهاجة العدو التقليدي لقبائل زناتة الموالية لأمويي الأندلس .

وأمويو الأندلس تدخلوا في شؤون المغرب الأقصى لا خوفاً من غزو فاطمي وشيك للأندلس بقدر الحيلولة دون هيمنتهم على موارد التجارة السودانية(١). وكانت عدتهم في هذا الصراع قبائل زناتة، خاصةً ما هاجر منها من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين وحلفائهم من صنهاجة(٢) . كما اعتمدوا على العناصر الأندلسية التي استوطنت المغرب الأقصى منذ عصر الإمارة . وعلى ذلك يمكن القول بأن الصراع بين صنهاجة وزناتة لم يكن صراعاً إثنياً بقدر ما استهدف مراقبة مسالك تجارة الصحراء(٣) . وهذا يفسر لماذا حرص القطبين على تكريس الجهود العسكرية في المناطق الاستراتيجية كبلاد الريف وسواحل البحر المتوسط ومنطقة تازا ومدن وموانىء المحيط الأطلسي .

أما الأدارسة؛ فقد تعرضوا للخطرين معاً. إذ أن وجودهم غير القاري؛ سواء. في فاس والبصرة أو في بلاد غمارة وحجر النسر أو سواحل المحيط ؛ دخل ضمن ميدان الصراع في المنطقة الحيوية التي تنازع عليها الفاطميون والأمويون . ونظراً لتمزق دولتهم في عهود خلفاء محمد بن إدريس ؛ فقد وقفوا موقف المتردد ؛ تارةً يؤيدون الفاطميين وأخرى يناصرون الأمويين حسب مقتضى الحال . مستهدفين من ذلك مجرد البقاء والإستمرار ، واسترداد وحدة دولتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وهنا صدق أحد الباحثين(٤) حين قال

(١) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي : ٢ : ٢٣١ وما بعدها ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .

(٢) Provençal: Op. Cit. Vol. 3, Paris, 1950, p. 79.

(٣) Al-laroui: L'Histoire du Maghreb, Paris, 1970, p. 127.

(٤) أحمد بدر : تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ، ص ٨٢ ، دمشق ١٩٧٤ .

« تلخص هدف الأدارسة في الهيمنة على الأرض أو بسط السلطان السياسي » .

أما عن الوسائل والأساليب التي تذرعت بها قوى الصراع ؛ فكان أهمها تجريد الحملات العسكرية . وقد ارتهن إنفاذ هذه الحملات بمعطيات القوة أو الضعف ، فضلاً عن مقتضيات ماجريات حركة الصراع في المغرب الأقصى .

كما عمد المتصارعون إلى استرضاء القوى المحلية وكسبها إما بالقوة والغلبة أو بالبذل والعطاء . وقد أفلح هذا الأسلوب في التعامل مع مجتمعات شهدت فراغاً سياسياً من ناحية وسادتها السخائم العصبية ومزقتها الإحن المذهبية من ناحية أخرى .

كما أن أسلوب التجسس كان أداة هامة وظفت على نطاق واسع لتحقيق أهداف الصراع من لون القوى الثلاث[١] . فعبد الرحمن الناصر لم يعدم عيوناً وجواسيس من زناتة ومن العناصر الأندلسية المقيمة بالمغرب الأقصى . وفي ذلك يقول ابن سعيد[٢] : « كانت للناصر عيون على ما قرب وبعد ، صغر أو كبر » . أما الحكم المستنصر فقد أوصى قواد حملاته بقوله : « فليكن منكم دسيس إعلام وتقديم تعريف إلى خاصتهم وعامتهم »[٣] .

وبديهي أن يتفوق الفاطميون في هذا المجال نظراً لطول باعهم في مجالات النشاط السري . لذلك أنفذوا العيون والجواسيس المتخفين في ثياب العلماء والتجار إلى المغرب الأقصى والأندلس . وحسبنا دور حجامة «إخوان الصفا» في هذا الصدد . ومن مشاهير جواسيس الفواطم العالم أبو اليسر الرياضي وابن حوقل التاجر والرحالة اللذان جمعا معلومات ضافية عن أحوال المغرب الأقصى والأندلس ؛ جغرافياً وبشرياً[٤] .

---

(١) Provencal : Op. cit. vol. ?, p. p.¨ùç,¨ù?.

(٢) المغرب في حلى المقرب ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ، بيروت ١٩٤٨ .

(٣) ابن حيان : قطعة عبد الرحمن الحجى ، ص ٧٦ ، بيروت ١٩٦٥ .

(٤) أحمد بدر : ١١١ .

وبالمثل اتخذ الأدارسة عيوناً وجواسيس للوقوف على أخبار إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس . خاصةً وأنهم لم يعدموا وجود شيعة على مذهبهم في سائر هذه الأنحاء .

وثمة أسلوب آخر تذرع به المتصارعون هو الدعاية الإديولوجية ؛ التي كرست لكسب الأعوان والأتباع والأنصار . فلم يأل الفاطميون جهداً في بث الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب والأندلس . ولم يتوان أمويو الأندلس في تبرير مشروعية خلافتهم حين غلفوها بالمذهب المالكي السني نكاية في الفاطميين الإسماعيلية والأدارسة الزيدية . وحسبنا أن الخليفة المستنصر أمر الفقهاء بحفظ مدونة سحنون[1] ، كما أنفذهم إلى بلاد المغرب لكسب نظرائهم في المذهب إلى جانبه[2] . ورغم ضعف الأدارسة وتشرذمهم ؛ وجد منهم أمراء حرصوا على إظهار تشيعهم الزيدي والدعوة إلى مذهبهم . وحسبنا أنهم أمروا الدعاة للتبشير بظهور إمام عادل تعم دعوته المشرق والمغرب[3] .

هكذا وظفت الإديولوجية المذهبية لخدمة مخططات سياسية . وحق لأحد الدارسين[4] القول بأن « العامل الإديولوجي عامل ثانوي سخر لخدمة السبب الأساسي في الصراع »

فلنحاول عرض أطوار هذا الصراع مسترشدين بهذا الإطار النظري .

وننوه بأن أحداث الموضوع ووقائعه من الكثرة والتداخل والتخليط بمكان . لذلك لن نحفل إلا بتبيان الخطوط الأساسية مع التدليل بالوقائع والأحداث بعد تحقيقها . وننبه أيضاً أننا لن نعرض للقوى المحلية الأخرى التي

(١) نفسه : ١٠٧ .
(٢) نفسه : ١٢١ .
(٣) ابن الأبار : ١ : ١٣٢ .
(٤) انظر : الحبيب الجنحاني : المرجع السابق : ٧٤ .

شملها الصراع إلا بالقدر الذي يساعد على إجلاء موقف الأدارسة إزاء القطبين المتصارعين[1] .

يمكن تقسيم الموضوع إلى أطوار ثلاثة ؛ يبدأ الطور الأول مع ظهور الفاطميين وينتهي بعام ٣٢٤ هـ . وقد توازن إبانه نفوذ الأمويين والفاطميين في المغرب الأقصى ، وتذبذب موقف الأدارسة بين الولاء والقطيعة لهؤلاء أو أولئك .

أما الطور الثاني فينتهي حول عام ٣٤٧ هـ . وقد تميز بسيادة النفوذ الأموي الأندلسي خاصةً في المناطق الشمالية من المغرب الأقصى ، ثم هوس هذا النفوذ في أواخر الحقبة ليحل النفوذ الفاطمي محله . وقد انتهز الأدارسة هذا التحول لتوسيع نفوذهم على حساب أمويي الأندلس .

أما الطور الثالث ؛ فينتهي عام ٣٧٥ هـ . وقد شهد تضاؤل النفوذ الفاطمي واستفحال الصراع الأموي الإدريسي ؛ ليتمخض في النهاية عن تعاظم المد الأموي وإسقاط حكم الأدارسة .

تعاظم النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى في بداية الطور الأول من أطوار الصراع . ويرجع ذلك إلى مؤازرة قبائل صنهاجة التي أرغمت القبائل الزناتية على الهجرة إلى المغرب الأقصى لتلعب ـ شأنها شأن القوى المحلية الأخرى ـ دوراً مخرباً لصالح أمويي الأندلس وهرباً من سياسة التغريم والشطط الجبائي التي اتبعها الفاطميون في إفريقية والمغرب الأوسط[2] .

وبرغم رابطة القرابة بين الأدارسة والفاطميين ؛ وقف الأدارسة إلى جانب

---

(١) عن دور هذه القوى ، راجع : سنوس يوسف : دور زناتة في تاريخ المغرب من خروج الفاطميين إلى ظهور المرابطين . رسالة دكتوراه بإشراف المؤلف ـ مخطوطة . ، عبد الكريم بيصعين : الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى . رسالة ماجستير بإشراف المؤلف أيضاً ، مخطوطه .

(٢) عبد الكريم بيصعين : ٣٣٩ .

أمويي الأندلس لمواجهة حملة مصالة بن حبوس التي أنفذها الفاطميون إلى المغرب الأقصى[١] .

توجهت الحملة إلى نكور ـ حليفة قرطبة ـ للحيلولة دون تسرب الأمويين إلى طرق التجارة شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً[٢] . وقد نجحت في تحقيق أغراضها بعد أن توغلت في الداخل وأحكمت السيطرة على منطقة تازا الإستراتيجية .

وإزاء هذا المد الفاطمي ، لم يجد يحيى بن إدريس أمير فاس مناصاً من إعلان الطاعة للفواطم[٣] .

تمثل رد الفعل الأموي في نجاح الخليفة الناصر ـ عن طريق الدبلوماسية ـ في إعادة الأمور بالمغرب الأقصى إلى سابق عهدها خصوصاً بعد انسحاب مصالة .

وفي عام ٣٠٧ هـ أنفذ الفاطميون حملة مصالة الثانية التي غزت فاس ونجحت في عزل يحيى بن إدريس[٤] . وكسب الفاطميون بذلك مدينة هامة ذات مكانة تجارية وكثافة بشرية وقيمة روحية .

وبعد انسحاب مصالة ؛ تمكن الأمير الإدريسي الحسن الحجام من استرداد فاس[٥] . ثم استعان بقبائل البربر الناقمة على الفواطم ليمد نفوذه إلى البصرة وأصيلا وزويفة وغيرها[٦] .

عندئذٍ أخذ موسى بن أبي العافيه ـ حليف قرطاجة ـ على عاتقه مهمة تأديب

---

(١) ابن عذاري : ١ : ١٧٥ .
(٢) أحمد بدر : ٨٥ .
(٣) البكري : ١٢٥ .
(٤) نفسه : ١٢٦ .
(٥) ابن أبي زرع : ٨١ .
(٦) Terrasse, H: Histoire du Maroc. Casablanca, 1949 , p. 127 .

الحسن الحجام ؛ نظراً لانشغال الناصر بمشكلات داخلية أندلسية . فاستولى موسى على فاس وتوسع على حساب آل سليمان ـ أبناء عمومة الأدارسة ـ في تلمسان وجراوة[1] . فتقلص بذلك نفوذ الأدارسة وتوقعوا في حجر النسر ببلاد غمارة حيث كان أميرهم آنذاك محمد بن القاسم بن إدريس[2] . أما بنو عمر بن إدريس فقد انكمشوا في تيجساس[3] ، بينما لاذ آل سليمان بأرشقول[4] .

خشي الناصر من تعاظم نفوذ موسى بن أبي العافية على حساب القوى المحلية الموالية له بالمغرب الأقصى . لذلك عقد العزم على الاهتمام بأمور العدوة . وأنفذ حملة استولت على مليلية[5] ودعمت نفوذ حلفائه بنكور . كما استمالت محمد بن خزر المغراوي ـ عدو الفاطميين اللدود ـ الذي تمكن بمعاونة الناصر من مد نفوذه من تلمسان إلى تخوم إفريقية بحذاء الساحل[6] .

أما عن موقفه من الأدارسة ؛ فقد عقد وفاقاً مع آل سليمان وعجز عن استمالة أدارسة الريف لتشبثهم بالولاء للفواطم[7] . ولا نجد مبرراً لزعم ابن حيان[8] بأن هذا الولاء كان « نصراً للعصبية وانحرافاً عن بني أمية للأحقاد القديمة » . ذلك أن عداء الأدارسة للفواطم كان أكثر حدة من عدائهم لأمويي الأندلس . ولم تكن مواقفهم من هؤلاء أو أولئك إلا لخدمة طموحاتهم في استرداد نفوذهم المفقود .

على كل حال ـ بلغ المد الأموي أوجه باستيلاء الناصر على سبتة التي « اشتد بها سلطانه وتعاظم بها شأنه لما ملك البحر بعدوتيه . . . وأضحت ركاباً

---

(١) ابن عذاري : ١ : ١٣٤ .
(٢) ابن أبي زرع : ٨٥ .
(٣) ابن خلدون : ٦ : ٤٤٨ .
(٤) ابن عذاري : ١ : ١٩٦ .
(٥) ابن الخطيب : ٣ : ١٧٦ .
(٦) ابن عذاري : ١ : ١٩٤ .
(٧) ابن حيان : قطعة شالميتا ، ص ٢٦٢ .
(٨) نفس المصدر والصفحة .

إلى العدوة. . . توطدت بها طاعته بأرض المغرب »؟ [١].

ولما كانت سبتة تابعة للأدارسة ؛ لذلك حاولوا استردادها . وبالفعل جرد إبراهيم بن محمد وأخوه القاسم جنون حملة لم يقدر لها النجاح[٢] . كما حاول آل سليمان استرداد تلمسان وجراوة دون طائل[٣] . عندئذٍ أنفذ الناصر أسطوله لقمع الأدارسة وآل سليمان في آن ؛ فلم يجد الخصمان بداً من الإذعان[٤] . وتعلل الأدارسة بأن قبائل البربر هي المسؤولة عن غزو سبتة . ويبدو بالفعل أن قبائل بني يفرن الموالية للأدارسة كانت من وراء غزو المدينة . كما تذرع السليمانيون بأن ولاءهم للناصر جر عليهم نقمة الأدارسة[٥] .

ومع ذلك كان إعلان هؤلاء وأولئك الطاعة للناصر من قبيل التمويه ؛ إذ ما لبث السليمانيون أن تحصنوا بجزائر ملوية[٦] . أما الأدارسة فقد تنصلوا من طاعتهم على أثر إنفاذ الفاطميين حملة جديدة بقيادة حميد بن يصل ؛ استولت على تلمسان وجراوة وفاس وكفلت للعلويين شيئاً من نفوذ[٧] .

إهتبل الأدارسة الفرصة فهاجموا أصيلا وحشدوا جهة قوية ضد الناصر مكنتهم من الإستيلاء عليها[٨] . لكن التجار الأندلسيين بالمدينة راسلوا الناصر في طلب النَجدة ؛ فأنفذ أسطولاً وضع حداً لنفوذ الأدارسة بأصيلا[٩] .

وبالمثل راسل الأدارسة القاسم بن المهدي الفاطمي ؛ فأنفذ حملة يقودها

---

(١) نفسه : ٢٨٩ .
(٢) نفسه : ٢٩٠ وما بعدها .
(٣) نفسه : ٢١٣ .
(٤) نفسه : ٣٦٢ .
(٥) سنوسي يوسف : ٧٠ .
(٦) ابن عذاري : ١ : ٢٠٠ .
(٧) عبد الكريم بيصعين : ٢٨٢ .
(٨) ابن عذاري : ١ : ٢٤٣ .
(٩) ابن حيان : ٣٤٧ .

ميسور الفتى الذي تمكن من اقتحام فاس[١] بعد القضاء على نفوذ ابن أبي العافية وأورث الأدارسة أملاكه[٢] .

لكن الأدارسة عجزوا عن دخول فاس عقب رحيل ميسور ، كما عجزوا عن استرداد أصيلا ؛ فعادوا للتقوقع في حجر النسر[٣] . ولم يجدوا محيداً عن الكتابة إلى الناصر يؤكدون تنصلهم من التبعية للفواطم ويعلنون له الطاعة مبررين مسلكهم « بالخوف من بطش ميسور ودفعاً لمكروهه »[٤] .

على كل حال ـ انتهت هذه الرحلة من الصراع في المغرب الأقصى بانزواء الأدارسة في حجر النسر وأهوازها ، وإن ظلت بعض قبائل غمارة تدين لهم بالتبعية[٥] . وبالمثل انحصر نفوذ آل سليمان في سوق إبراهيم وأهوازها بعد أن بطش بهم الأمويون والفواطم على السواء[٦] .

دشن الطور الثاني من الصراع عام ٣٢٥ هـ بانحسار نفوذ قطبيه في المغرب الأقصى لانشغالهما بمشكلات داخلية ، الأمر الذي أتاح للقوى المحلية أن تعمل لحسابها وتوسع من دوائر نفوذها . فقد نجح السليمانيون في استرداد جراوة وتلمسان[٧] . كما تمكن أدارسة حجر النسر بقيادة القاسم جنون من استعادة أصيلا سنة ٣٢٦ هـ ، ثم ثنوا بالبصرة وتوسعوا شرقاً صوب ممر تازا[٨] . وقدر للإثنين معاً مد نفوذهما إلى مناطق ذات أهمية تجارية واستراتيجية .

---

(١) ابن أبي زرع : ٨٥ .
(٢) ابن عذاري : ١ : ١٩٨ .
(٣) ابن أبي زرع : ٨٧ .
(٤) ابن حيان : ٣٩٠ .
(٥) ابن عذاري : ١ : ٢١٤ .
(٦) عبد الكريم بيصعين : ٢٩٥ .
(٧) ابن حيان : ٣٨٦ .
(٨) ابن عذاري : ١ : ٢٣٥ .

ولا محل لتصديق ما قيل من أن هذا النشاط كان يجري لحساب الفواطم والصواب أنه تم على أنقاض الأمويين وأتباعهم من زناته[١] .

لذلك أنفذ الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٣ هـ ؛ نجحت في الضغط على أدارسة تيجساس من بني عمر بن إدريس ؛ فأذعنوا لطاعة الناصر .

على أن أدارسة حجر النسر بزعامة القاسم جنون أعلنوا الحرب على الأمويين وبني عمر في آن ووجهوا جيوشهم صوب سبتة وطنجة وتيجساس[٢] .

وعلى أثر وفاة القاسم جنون حل ابنه أحمد أبي العيش محله ؛ فواصل سياسة أبيه في التوسع وتمكن من ضم فاس[٣] . وضيق الخناق حول سبتة بأن شيد مدينة تيطاون[٤] .

إزاء تعاظم الخطر الإدريسي ؛ جرد الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٨ هـ ؛ قدر لها تخريب تيطاون ومحاصرة أحمد أبي العيش حتى استسلم . وحمل كرهاً إلى الأندلس لوضع حد لمناوراته[٥] . وجرى تنصيب أخيه الحسن بن القاسم مكانه فاعترف بالطاعة للأمويين . وظل الود طابعاً للعلاقة بين الطرفين حتى أعد المعز لدين الله الفاطمي حملة كبرى من كتامة وصنهاجة ؛ أسند قيادتها إلى جوهر الصقلي وأنفذها إلى المغرب الأقصى ؛

---

(١) عبد الكريم بيصعين : ٣٠٨ .
(٢) ابن عذاري : ١ : ٢١١ .
(٣) ابن أبي زرع : ٨٨ .
(٤) البكري : ١١٦ .
(٥) عبد الكريم بيصعين : ٣١٧ .
لا محل لتصديق ما ذهب إليه البكري من أن أحمد أبي العيش توجه إلى الأندلس طواعية واختياراً رغبة منه في المثاغرة ضد النصارى .
انظر : المغرب : ١٣١ .
(٦) ابن أبي زرع : ١٠٠ .

فوصلت فاس سنة ٣٤٧ هـ . ونجح جوهر في الإستيلاء على ديار آل سليمان وأحكم السيطرة على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب(١) .

أما الأدارسة ؛ فقد لاذ أميرهم الحسن بن القاسم بالأندلس(٢) . وكان بوسع جوهر إسقاط أدارسة الشمال ؛ لكنه عزف عن ذلك نظراً لبعد بلادهم عن طرق التجارة إلى السودان(٣) .

هكذا انصرم الطور الثاني من أطوار الصراع بعد أن توطد النفوذ الفاطمي على حساب الأدارسة والأمويين . وحسبنا أن النفوذ الأموي انحصر آنذاك على مدينة سبتة .

بدأ الطور الأخير في تاريخ الصراع بحقبة من الهدوء النسبي ؛ نظراً لانشغال الفاطميين بالإعداد للعودة إلى مصر، وانشغال أمويي الأندلس بمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي واكبت وفاة الناصر وأيلولة الخلافة إلى الحكم المستنصر . وهذا يفسر لماذا عول الأخير على الدبلوماسية وإنفاذ الأموال والألطاف للقوى الموالية له في المغرب . فوثق علاقته ببورغواطة ؛ ليكفل للأندلس نصيباً من تجارة السودان عبر طريق تارودانت(٤) . كما أسقط الضرائب على أهل سبتة كسباً لرضاهم(٥) .

أما الأدارسة فقد أنفذوا رسلهم إلى قرطبة سنة ٣٥٦ هـ ـ بعد أن تهددهم الخطر الفاطمي ـ يعلنون الطاعة للحكم المستنصر(٦) . لكنهم ما لبثوا

من مظاهر هذا الود إيفاد الناصر أحد أطبائه لعلاج أحد أمراء الأدارسة .
انظر : ابن حيان : ٤٦١ .
(١) عبد الكريم بيصعين : ٣٣٩ .
(٢) ابن عذاري : ١ : ١٩٨ .
(٣) عبد الكريم بيصعين : ٣٤٢ .
(٤) عبد الكريم بيصعين : ٣٥٣ .
(٥) ابن عذارى : ١ : ٢٧٧ .
(٦) نفسه : ٢٤٠ .

أن استغلوا تقاعسه عن التدخل العسكري في المغرب الأقصى ؛ وأخذوا يعملون لحسابهم ؛ خاصةً بعد أن وافقتهم أخبار قدوم حملة فاطمية . وفي ذلك يقول مؤرخ مجهول[١] أن « الحسن بن القاسم طمع في الوثوب بأصحاب الخليفة الحكم » .

وبالفعل استغل الحسن هذه الظروف ؛ فبسط نفوذه على كافة الأقاليم الشمالية الغربية من المغرب الأقصى[٢] . إذ استعاد أصيلا وفتح طنجة وحاصر ، سبتة سنة ٣٦٠ هـ بعد أن آزرته قبائل من غمارة وصنهاجة . وتسنى له بذلك الهيمنة على مصائر الأمور في المناطق الشمالية الغربية من المغرب الأقصى[٣] .

وقد ذكر ابن حيان[٤] ـ كعادته ـ أن العاهل الإدريسي فتح هذه البلاد باسم الخليفة المعز . لكن المؤكد أنه كان يعمل لحسابه منتهزاً تقاعس الحكم المستنصر عن التدخل العسكري وعزوف المعز عن أمور المغرب الأقصى ـ والأوسط أيضاً ـ نظراً لانشغاله بالانتقال إلى مصر . ونحن نؤكد على هذه السياسة الإدريسية المستقلة ونرى أن ولاء الأدارسة لأي من الطرفين الأموي أو الفاطمي لم يكن إلا نتيجة الضغوط التي مارساها على الأدارسة[٥] .

على كل حال ـ لم يدم هذا الوضع طويلاً ؛ فقد تخلص الحكم المستنصر من مشكلاته الداخلية والخارجية وأزمع التدخل في المغرب الأقصى . فبادر بتجريد حملة كبرى دعمها بأسطول ضخم[٦] . ونجحت جيوشه في استرداد تيطاون وطنجة وأصيلا ، لكنها هزمت في معركة مهران وقتل

(١) صاحب كتاب مفاخر البربر ، ص ٨ ، الرباط ١٩٣٤ .

(٢) Provençal: Op. Cit. Vol. 3, p. 185.

(٣) أحمد بدر : ٩٢ .

(٤) ابن حيان : قطعة الحجي : ٧٩ : بيروت ١٩٦٥ .

(٥) عبد الكريم بيصعين : ٣٦٥ .

(٦) محمد عبد الله عنان : ٤٩٢ .

(٧) ابن حيان : ٨٩ ، ٩٠ .

قائدها[١] . ونجح الحسن بن القاسم في لم شمل بـربر المنـطقة لـدعم نفوذه فيها .

لذلك لجأ الحكم المستنصر إلى الدبلوماسية من جديد . فأرشى رؤساء القبائل ، وشن حملة دعائية تتهم الحسن بن القاسم بالإلحاد[٢] .

وعملت هذه الوسائل عملها ؛ فانفض البربر عن الحسن ، كما تخلى عنه بعض أفراد البيت الإدريسي ؛ فلم يجد بـدأ من طلب الموادعـة . وأنفذ رسله إلى قرطبة في هذا الشأن ؛ لكن الحكم المستنصر أصر على « نفيـه من أرضه وإخراجه عن جميع ذلك البلد »[٣] .

وبالفعل حاصرته الجيوش الأموية وطاردته حتى تم القبض عليه ونفيه إلى الأندلس[٤] . أما أتباعه فقد عفا الحكم عنهم شريطة « موالاة من والاه ومعاداة من عاداه والسير مع السنة والجماعة وفق أحكام المذهب المالكي »[٥] .

هكـذا تمكنت الحملة الأنـدلسيـة من استئصـال شـأفـة الأدارسـة ببـلاد الريف[٦] ، وتحويل أتباعهم من المذهب الزيدي إلى المذهب المالكي .

على أن الحسن بن القاسم تمكن من الهرب ونزل إفريقية لائذاً ببلاط بني زيري . ومنها توجه إلى مصر[٧] . وهناك اتصل بالخليفة الفاطمي العزيز بـالله ليعينه على استعادة رياسته . وبالفعل أمر الخليفة بلكين بن زيري بقيادة حملة

(١) نفسه : ٩٦ .
(٢) نفسه : ١٥٠ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفسه : ٢٠١ .
(٥) نفسه : ٨١ - ٨٩ .
(٦) محمد عبد الله عنان : ٤٩٧ .
(٧) قيل أن الحكم المستنصر هو الذي أمر بطرده هو وأصحابه من الأندلس ؛ لتوفير ما ينفق عليهم من نفقات باهظة .
نفس المرجع : ٤٩٩ .

إلى المغرب الأقصى على أن يصطحب معه الحسن بن القاسم ليعمل على « تعكير الجو وإقامة العراقيل أمام بسط السيادة الأموية »[١] .

أنفذت الحملة بالفعل وتمكن الحسن بن القاسم من كسب قبائل البربر إلى جانبه[٢] ؛ وخاصةً بني يفرن الزناتيين[٣] . لكن وفاة بلكين المفاجئة وتراجع حملته إلى إفريقية فتح أبواب المغرب الأقصى على مصرعيها للمد الأموي من جديد .

ذلك أن المنصور بن أبي عامر أنفذ حملة إلى المغرب الأقصى تعاونت مع زيري بن عطية المغراوي ؛ قدر لها أن تجبر الحسن بن القاسم على الاستسلام[٤] . وتم القضاء على حركته سنة ٣٧٤ هـ[٥] .

وبالقضاء على هذه الحركة سقطت دولة الأدارسة . واختفى أفراد البيت الإدريسي في أغمار القبائل[٦] . وقامت دولة بني زيري المغراوية على أنقاضها متخذة من فاس الأدارسة حاضرة لها[٧] .

وفي ذلك يقول ابن أبي زرع : « كابد الأدارسة مملكتين عظيمتين وغالبين كبيرين ؛ دولة العبيديين بمصر وإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس . وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم » .

على أن بعض أفراد البيت الإدريسي تمكنوا فيما بعد من الأخذ بثأر آبائهم

---

(١) أحمد بدر : ١٠٠ .
(٢) ابن أبي زرع : ٩٣ .
(٣) أحمد بدر : ١٠٠ ، سنوس يوسف : ٧٤ .
(٤) أحمد بدر : ١٠٠ .
(٥) ابن أبي زرع : ٩٤ .
(٦) سنوسي يوسف : ٧٥ .
(٧) نفسه : ٧٣ وما بعدها .
(٨) القرطاسي : ٩٥ .

حين أسهموا في إسقاط الخلافة الأموية بالأندلس وأقاموا دولة بني حمود . وفي ذلك يقول ابن الخطيب[1] : « ركدت ريح العلوية بالمغرب . وكان من بقي منهم بقرطبه في ديوان السلطان جارين مجرى المغاربة ؛ إلى أن كانت الفتنة التي أدت إلى انقراض دولة بني أمية وتصيير الأمر إلى هؤلاء الأدارسة » .

* * *

(١) أعمال الأعلام : ٣ : ٢٢٤ .



خـاتـمة

طرحنا في مقدمة الكتاب وتقديمات الأبواب «إشكاليات الموضوع» . وأوضحنا ما تعلق منها «بالإطار المرجعي» . وما اختص بمناهج المعالجة ، وما ارتبط بالموضوع ذاته من حيث الأحداث والوقائع ومن حيث التفسير والتأويل .

كما تعهدنا بتقديم «الجديد» عن طريق حلحلة تلك الإشكاليات ؛ وهو ما أعلناه في عنوان الكتاب .

والسؤال هو : هل نجح الباحث من خلال عرضه أن يفي بالوعد ويقدم الجديد ؟

بديهي أن تترك الإجابة للمتخصصين ؛ فهم وحدهم مناط الحكم فيما إذا كان هذا الجديد حقيقة أم ادعاء . لكن واجب المؤلف إزاء القراء غير المتخصصين فضلاً عن الضرورة المنهجية التي تلزمه اختتام دراسته بما يفيد مدى ما أسفرت عنه ؛ يجعل من المشروع عرض الإسهامات التي أنجزها ولو عن طريق التنويه .

لذلك ؛ يمكن أن ننوه بما يأتي :

أولاً : بخصوص الإطار المرجعي ؛ كان الباحث حسن الطالع حين وقف على مادة جديدة أمكن الإفادة منها في إجلاء تاريخ كان قبل مضبباً . ويشهد العرض والببليوجرافيا على درجة هذه الإفادة من الوثائق والنصوص الجديدة والمسكوكات التي جرى استخلاص حقائق جديدة منها لم تكن معروفة سالفاً :

الأمر الذي ساعد على «ملأ فجوات» و «سد ثغرات» في تاريخ الأدارسة . هذا فضلاً عن حسم الكثير من القضايا الخلافية وتصحيح المزيد من الآراء المشتطة ؛ حسماً لا يترك المجال لشبهة .

ويشهد العرض أيضاً على أن الباحث لم يقف من هذه المادة الجديدة موقف «الإنبهار» بل تناولها «بالجرح والتعديل» قصد التحقق من صدقها . وسلك في هذا الصدد منهج المقارنة ؛ حيث وازن بينها وبين الإشارات التي تناظرها في المصادر المعروفة . وراجع القديم والجديد بالعودة إلى السياق العام لتاريخ الدولة المؤرخ لها ؛ تأسيساً على قاعدة خلدونية صحيحة هي الاحتكام إلى ما أسماه «بطبائع العمران» و «قياس الغائب على الشاهد» . واتضح بالفعل أن بعض هذه النصوص الجديدة انطوت على مبالغات وأخطاء بله «مفارقات» في بعض الأحيان . كما هو الحال ـ على سبيل المثال ـ بالنسبة لنصوص ابن حيان التي تزعق بالتحامل على الأدارسة وتنحاز لخصومهم أمويي الأندلس .

ثانياً : فيما يتعلق بالمنهج ؛ أثبت المؤلف في مقدمة الكتاب واستهلالات الأبواب عقم المناهج التقليدية سواء في مجال التحقيق أو في نطاق التفسير والتأويل . وفتح الباب على مصراعيه لسائر المناهج الحديثة ـ خاصةً وأن ثورة منهجية في العلوم الإنسانية أنجزت في السنوات الأخيرة ـ حيث وظفها بالقدر الذي يوافق قدراتها وفي المواضع المناسبة لإمكاناتها . وعلى سبيل المثال وظف البنيوية والسيمولوجية في قراءة النصوص للإفصاح عن محتواها والوقوف على دلالات اصطلاحاتها بله ألفاظها . بذلك تسنى للباحث الوقوف على معلومات طالما حجبت أمام القراءات الكلاسيكية ؛ أفاد منها خصيصاً في مجال تحقيق الأحداث والوقائع والأسماء والألعاب والتواريخ وما شابه .

أما في مجال التفسير ؛ فقد عقد المؤلف «وفاقاً» بين «الآراء» الخلدونية والنظرية المادية في المعرفة ؛ دون اعتساف أو تجن على ما اصطلح على تسميته «بالأصالة والمعاصرة» .

وقد يرى البعض أن الباحث اهتم بالتاريخ السياسي في المحل الأول ؛ ومن ثم أهمل التاريخ الحضاري فلم يفرد له مباحث مستقلة في الكتاب . وفي هذا الصدد ننبه إلى أن منهجنا لا يرى فصلاً بين ما هو سياسي وما هو حضاري ؛ تأسياً على أن «السيرورة» و «الصيرورة» التاريخية تتسم بالشمول والتوحد والتكامل ، لا بالتجزيء والتقسيم العشوائي المعتسف . كما ينوه المؤلف بجدة منهجه في هذا الصدد . ولا حاجة لدفاع نظري عنه بعد أن أثبت التطبيق العملي صحته . وحسبنا أنه بفضل هذا المنهج تحول تاريخ الأدارسة من كونه أحداثاً ووقائع وأحوال لا رابطة بينها إلى مجموعة من «الأفكار» الواضحة المستقاة من استقراء هذه الأحداث والوقائع والأحوال التي تعامل معها الباحث باعتبارها «مادة أولية» .

وقد يقف القارىء المتخصص أيضاً على «جديد منهجي» فيما استنه الباحث من توسيع دائرة موضوع بحثه . إذ وضع الأدارسة في مركز دائرة صغرى هي المغرب الأقصى الذي لا يمكن فهم تاريخه إلا بعد الإحاطة بدائرة أرحب هي المغرب الكبير ـ أو بلاد المغارب كما يحلو للمؤرخين المغاربة المحدثين الاصطلاح ـ التي تطوق بدائرة أوسع هي «دار الإسلام» . بل اضطر الباحث أحياناً إلى إحاطة كل هذه الدوائر بدائرة التاريخ العالمي . والباحث إذ ينهج هذا النهج ؛ على قناعة تامة بثراء المعرفة المترتبة على رؤية الخاص في إطار العام .

ثالثاً : بخصوص «بدن» الموضوع ـ وهو تاريخ الأدارسة ـ يحسب الباحث أنه قدم «حلولاً» ناجعة لكافة «إشكالياته» . وحتى لا يتوهم القارىء ظلالاً «نرجسية» في هذا الحكم ؛ يبادر المؤلف فينبه إلى أن الفضل في ذلك يعود إلى «المادة الجديدة» التي توافرت له و «المنهجية الجديدة» التي توسل بها في دراسة الموضوع .

ولا يتسع المجال إلا للإشارة العابرة إلى بعض النتائج التي انتهى إليها الباحث . ففي الباب الأول جرى إثبات وجود دعوة زيدية في الشرق ـ لأول

مـرة ـ بدأت مستقلة ، ثم انخـرطت في الدعـوة العباسيـة ، ثم انفصلت عنهـا لتندمج أخيراً في دعوة المعتزلة .

ومن خلال عرض الموضوع ؛ اتضح أن دولة الأدارسة مدينة في تأسيسها إلى هـذه الدعـوة . على عكس ما ذهب إليـه معظم الـدارسين من أنها قـامت كحدث عفوي مجاني دون سابق إعداد أو تنظيم .

كما أثبت العرض أن قبيلة أوربـة المعتزليـة شكلت قاعـدة العصبية التي قامت بأمر الدعوة في المغرب الأقصى وتوجتها بتأسيس دولة برهن قيامهـا على صحة النظرية الخلدونية في قيام الدول « عظيمة الملك عريضة الإستيلاء » .

وفي البـاب الثاني ؛ أثبتت الـدراسة ـ لأول مـرة ـ كذلـك صدق الـرؤية الخلدونية «البيولوجية» في تـطور الدول من الـطفولـة إلى المراهقـة والفتوة ثم الشيخوخة . ومن ثم تفرد عرض سياسة الأدارسة الداخلية بتحاشي المنهجيات «الكرونولوجية» و «التيولوجية» و «الإثنية» ؛ ليقيم بنـاء متسقاً ذا معـالم واضحة مرتبطة بمعطيات الواقع «السوسيو ـ سياسي» حيث ترتبط الأسبـاب بالمسببـات وردود الأفعال بأفعالها . إذ أوضح العرض سياسة «المخزن» ورتب عليها مواقف المعارضة التي أثبت أنها لم تكن مجرد حركات عفوية تعبر عن سخائم عصبية أو نزعات مذهبية أو مغامرات فردية ؛ بقدر ما كانت تعبيراً عن معطيات «سوسيو ـ إقتصادية» . كما أثبت العرض تأكيد الطبيعة الخاصة والمتميزة لمفهوم « الدولة المغربية القرو ـ وسطوية » ؛ حيث لعبت الجغرافيا الطبيعية والبشرية دوراً موجهاً لحركة التاريخ .

على أن الإشارة إلى السمة الخاصة «للدولـة المغربيـة» لا تتعارض مـع إعتقادنا في القوانين العامة لحركة التاريخ بقدر ما تفسر في إطار هذه القـوانين نفسها . إذ تفهم هذه الخصوصية ضمن « مجتمعات ما قبل الرأسمالية » .

لذلك ؛ كان الإطار النظري الذي انتهى عرض الموضوع إلى صياغته هو « الصراع بين البورجوازية والإقطاع » .

وفي الباب الثالث ؛ تناول المؤلف موضوع العلاقات الإدريسية الخارجية . ويزعم الباحث سيطرته على الموضوع بوقوفه على قاعدتين هامتين تحكمان مساره . الأولى : قاعدة «التوازن» بين القوى ؛ بحيث لم تتغير خريطة المغرب الإسلامي تغييراً ذا بال . إذ حافظت كافة القوى ذات العلاقات مع الأدارسة على معطيات «سياسة الأمر الواقع» « Status-quo » ؛ برغم مشروعاتها السياسية التوسعية الكبرى التي أفضت إلى حيك المؤامرات والاغتيالات وتدبير المكائد والصراع العسكري في بعض الأحيان .

والثانية : قاعدة «المصالح الإقتصادية المشتركة» التي دعمت قاعدة توازن القوى » - إن لم تكن من أهم أسبابها - والتي جعلت صيغة «التعايش» تجب الإختلافات الإثنية والخلافات المذهبية والطموحات السياسية .

وإذا كان مؤرخاً مثل «جوتييه» أشار إلى القاعدة الأولى ، وآخر مثل موريس لومبار فطن إلى أهمية القاعدة الثانية ؛ فإننا نجزم بأن أياً منهما لم يطبق ما توصل إليه نظرياً .

ولا يجد المؤلف حرجاً في الإعلان عن اغتباطه بما أنجز في هذا الموضوع الذي زادت صفحات تناوله عن السبعين صفحة بعد أن كان لا يزيد حيز تناوله عند غيره عن ورقات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة .

أما عن إسهامات هذا العمل في مجال التحقيق ؛ فحسبه أن كلا صفحاته لا تخلو من جديد سواء في تحقيق التواريخ والأسماء والمواضع والأماكن أو في الكشف عن أخطاء القدامى والمحدثين بصددها .

وفي مجال التفسير ؛ لا يتقاعس المؤلف عن الإشارة إلى ما تضمنته مقدمات الفصول والأبواب من آراء نظرية جرت برهنتها خلال العرض لتتحول إلى أحكام ومقولات وتعقيبات اختتم بها كل باب وكل فصل .

وهذا يرجع إلى قناعة المؤلف بقراءته الجديدة لابن خلدون وربط نتائجها بإيجازات النظرية المادية في المعرفة دون أي عنف أو اعتساف .

لقد دلّ هذا العمل ـ بامتياز ـ عمّا سبق أن بشَّر به وتبناه وأثبته المؤلف في كتابات سابقة ـ ذات طابع نظري سجالي ـ في مجال المنهج والرؤية .

أخيراً ـ يعتذر الباحث عن استرساله في تبيان «الجديد» الذي توصل إليه . وعزاؤه أنه كتب هذه الخاتمة لا باعتباره مؤلف الكتاب ؛ بقدر كونه قارئاً متخصصاً له .

والله ولي التوفيق .

المصادر

١ ـ ابن الآبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، فرانز ١٨٦٦ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، الرباط ١٩٧٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٤) ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس ، تحقيق الحجي ، بيروت ١٩٦٥ .

(٥) ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس ، تحقيق محمود مكي ، بيروت ١٩٧٣ .

(٦) ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس ، تحقيق شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ .

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ .

(٨) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ ٣ ، الدار البيضاء ١٩٧٤ .

(٩) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ؟

١٠ ـ ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ٦ ، بيروت ١٩٧٩ .

١١ ـ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، بيروت ١٩٤٨ .

١٢ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ليدن ١٩٢٠ .

١٣ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٣ ، القاهرة ١٩٤٠ .

١٤ ـ ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، باريس ١٩٤٨ .

١٥ ـ ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ٢ ، بيروت ١٩٥٠ .

١٦ - ابن عرفه الورغمي : باب الإمام ، حوليات الجامعة التونسية . عدد ٩ ، تونس ؟
١٧ - ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، بريل ١٩٨٥ .
١٨ - ابن قتيبة : الإمامة والسياحة ، جـ ١ ، القاهرة ؟
١٩ - إبراهيم العبيدي : البورغواطيون في المغرب ، مراكش ١٩٨٣ .
٢٠ - أبو زكريا : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٠٣٠ ح.
٢١ - أحمد بدر : تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ، دمشق ١٩٧٤ .
٢٢ - أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، القاهرة ؟
٢٣ - إسعادة الشيخ : المجتمع المغربي في عصر الولاة ، رسالة ماجستير ، مخطوطة .
٢٤ - الإدريسي : نزهة المشتاق ، الجزائر ١٩٥٧ .
٢٥ - الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ، النجف ١٣٥٣ هـ .
٢٦ - الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحارة الإسلامية ، تونس ١٩٦٨ .
٢٧ - الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ، تونس ١٩٧٨ .
٢٨ - السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، جـ ٢ ، الإسكندرية ١٩٦٦ .
٢٩ - AL à Laroui : L'histoire de Maghreb, Paris, 1970 .
٣٠ - إيف لاكوست : العلامة ابن خلدون، بيروت ١٩٧٤ .
٣١ - Eustache : Compus de dirhams Idrisites et contemporains, Rabat, 1970.
(٣٢) Provençal, L'Histoire de L'Espagne Musulmane, Vol;1. Alger, 1944, vol. 3, Paris, 1950.
٣٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق - القاهرة ؟
٣٤ - البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس ١٩١١ .
٣٥ - البلاذري : انساب الأشراف، جـ ٣، القاهرة ١٩٥٩ .

٣٦ ـ البلخي : مقالات إسلامية ، تونس ١٩٧٤ .

٣٧ ـ Terrasse, H. Historie du Maroc, Casablanca, 1949.

(٣٨) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٤٨ .

(٣٩) Gautien: Les Siecles obscures du Maghreb, Paris, 1927 .

٤٠ ـ جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤١ ـ جوليان : تاريخ إفريقية الشمالية ، تونس ١٩٨٥ .

٤٢ ـ حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٦٩ .

٤٣ ـ حسن علي حسن عبد العواد : دولة الأدارسة ، رسالة ماجستير ـ مخطوطة .

٤٤ ـ الدمشقي : تاريخ الجهمية والمعتزلة ، ؟

٤٥ ـ الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٩ .

٤٦ ـ سامية توفيق : انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٨٦ .

٤٧ ـ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، جـ ١ ، الأسكندرية ١٩٦٤ .

٤٨ ـ Scott: History of the Moorish empire in Europe, Vol. 1, London, 1904.

٤٩ ـ السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ .

٥٠ ـ السنوسي : الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية ، القاهرة ١٩٥٤ .

٥١ ـ سنوسي يوسف : دورزنامة في المغرب الإسلامي من خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين ، رسالة دكتوراه ـ مخطوطة .

٥٢ ـ الشماخي : السير ، القاهرة ؟

٥٣ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٤٥ .

٥٤ ـ الصاحب إسماعيل بن عباد : نصرة مذاهب الزيدية ، بغداد ١٩٧٧ .

٥٥ ـ عبد الكريم بيصعين : الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى ـ رسالة ماجستير ـ مخطوطة .

٥٦ ـ عبد اللطيف السعداني : إدريس الأول ؛ منشىء دولة وباعث دعوة . مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، فاس ، عدد ٤ ، ٥، سنة ١٩٨٠ ، ١٩٨١ .

٥٧ ـ عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول ، القاهرة ١٩٧٣ .

٥٨ ـ فلهوزن : الخوارج والشيعة ، القاهرة ١٩٦٨ .

٥٩ ـ Vonderheyden: la Berberie Musulmane sous la dynastie des Benou'l - Arlab, Paris, 1927.

٦٠ ـ Fournel : Les Berbers, vol. 1, Paris,. 1875.

٦١ ـ Marcais, G : L'Afrique du Nord Français dans L'histoire, Paris, 1937.

٦٢ ـ Marcais, G : La Berberie Musulmane et L'Orient au moyen ages, Paris, 1964.

٦٣ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٠ .

٦٤ ـ مجلة الوثائق ، جـ ١ ، الرباط ١٩٧٦ .

٦٥ ـ مجهول : نبذة من كتاب التاريخ ؟

٦٦ ـ مجهول : الاستبصار، الإسكندرية ١٩٥٨ .

٦٧ ـ مجهول : تاريخ مدينة فاس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٤١٩ ح.

٦٨ ـ مجهول : نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى ، الرباط ١٩٢٩ .

٦٩ ـ مجهول : مفاخر البربر ، الرباط ١٩٣٤ .

٧٠ ـ محمد أركون : تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، بيروت ١٩٨٦ .

٧١ ـ محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، بيروت ١٩٨٥ .

٧٢ ـ محمد حباني : خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة ، رسالة ماجستير مخطوطة .
٧٣ ـ محمد حسن الزين : الشيعة في التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ .
٧٤ ـ محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، الدار البيضاء ١٩٨١ .
٧٥ ـ محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، القاهرة ١٩٦٩ .
٧٦ ـ محمود إسماعيل : الأغالبة ، فاس ١٩٦٨ .
٧٧ ـ محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام ، فاس ١٩٧٧ .
٧٨ ـ محمود إسماعيل : مغربيات ، فاس ١٩٧٧ .
٧٩ ـ محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، جـ ١ ، ٢ ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .
٨٠ ـ محمود إسماعيل : مقالات في الفكر والتاريخ ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .
٨١ ـ محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٨٦ .
٨٢ ـ محمود إسماعيل : فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية ، بيروت ١٩٨٨ .
٨٣ ـ المرتضى : المنية والأمل ، حيدر أباد ، ١٣١٦ هـ .

٨٤ ـ Mercier : Histoire de L'Afrique Septentrionale, Vol.1, Paris, 1888.

٨٥ ـ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، القاهرة ١٩٦٤ .
٨٦ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .
٨٧ ـ الملطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، القاهرة ١٩٤٩ .
٨٨ ـ موريس لومبار : الذهب الإسلامي من القرن الثالث حتى القرن الثامن الميلادي ، فصل في كتاب «بحوث في التاريخ الاقتصادية» ، القاهرة ١٩٦١ .

٨٩ ـ Motylinski: Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams. Rostmides de tahart. Actes du 14 Congrés international des Onientalistes, Alger, 1905, vol.3, part 2.

٩٠ ـ النـوبختي : فرق الشيعة ، بيروت ١٩٨٤ .
٩١ ـ النويري : نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، ٢٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .
٩٢ ـ هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب ، تونس ١٩٨٠ .
٩٣ ـ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، بيروت ١٩٥٦ .
٩٤ ـ اليعقوبي : تاريخ ، جـ ٢ ، النجف ١٣٥٨ هـ.
٩٥ ـ اليعقوبي : البلدان ، ليدن ، ١٨٩٤ .



